

اَلْحِطَّافُ الدَّعْوَةُ الْاِسْلَامِيَّةُ

نَحْوُ الْغُلُوِّ



حَقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطبعة الأولى ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

يسري، محمد إبراهيم

اختطاف الدعوة الإسلامية .. نحو الغلو

تأليف محمد يسري إبراهيم

القاهرة، دار اليسر ٢٠٢١ م.

١٥٩ ص، ١٧ × ٢٤ سم.

تدمك ٩٧٨٩٧٧٧٩٤١٠٦٨

١ - الإسلام - دعوة

أ - العنوان

٢١٣

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

يمنع نسخ، أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية، أو إلكترونية، أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة، أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

٢١ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن

مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية

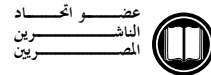
تليفون: ٠٢٤٧١٤٨٠١ - ٠٢٤٧٦٢٠٨ - ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨

خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com

Email: alyousr@gmail.com

info@dar-alyousr.com



رقم الإيداع

٢٠٢٢/٥٥٥٥

ترقيم دولي

978-977-794-106-8

اِخْتِطَافُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
نَحْوُ الْغُلُوِّ

سلسلة اختكاف الدعوة الإسلامية

(١)

اِخْتِطَافُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نَحْوَ الْغُلُوِّ

تأليف

د. محمد نسيري إبراهيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم وبارك على من لا نبي بعده.
وبعد:

فإن الفكرة المستندة إلى الوحي المعصوم في تقريرها، والاستدلال لها-
فكرة خالدة، تستمد بقاءها من بقاء الحق وقِدَمِهِ، وقد قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ
وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

والفكرة الحق عند من آمن بها تعلو ما عداها، وتسمو فوق ما سواها، وتظفر
بمن ناوأها وعادها، وهي تُنشئ واقعاً يستند في وجوده إليها، ويقوم في بنائه
عليها، وبقدر ما تكون الفكرة نقيّة، والممارسات المبنية عليها مسدّدة- تنشأ لها
معارضات وعداوات من الباطل وأهله!

ومن ذلك: ما يدفعه الحسد، ويرفّده الحقد، قال سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ
أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَلَ
عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].
وقال جلّ وعلا: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

ومن ذلك: ما يتسبّب فيه الجهل والضلال معاً، وقد قال ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ

الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا»^(١).

فإذا سمَّاهم الله تعالى في كتابه: (مغضوباً عليهم)؛ لتكبيهم طريق الحق بعد تبينه، وسمَّاهم: (ضالين)؛ لجهلهم بالحق، وزيغهم عن سبيله، فهل يتأتى بهداهم اقتداء، وهل يُطلب سؤالهم في ابتداء أو انتهاء؟!

ولو أن الأمر توقَّف عند حسيدي، أو حقدٍ، أو غلٍّ لربما هان الخطب، وخفَّ الكرب، إلا أن الواقع يشهد، يقول الحق تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَعْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿إِنْ يَتَفَقَّوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [المتحنة: ٢].

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وكلُّ ما تقدَّم يبرهن على أن الحرب على الإسلام وفكرته وأهل ملته قديمة، قدَّم بعثة سيد الأنام ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمَّا كُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

ومن صور ذلك المكر الكُبار، وكيد الليل والنهار: الحرب على الفكرة الإسلامية ومن يمثلها اعتدالاً واتزاناً في صورة الدعوة الإسلامية المعاصرة المنضوية تحت راية أهل السنة والجماعة، على تعدد مدارسها الدعوية، وتنوع اهتماماتها العلمية والعملية. إن أعداء الإسلام لا يبالون بأيِّ وادٍ هلك أهله! فهم يسعون بطرق شتى

(١) أخرجه أحمد (١٤٦٣١)، وعبد الرزاق في المصنف (١٠١٥٨)، والبيهقي في السنن (١١، ١٠/٢).

لاختطاف أهله؛ تارةً نحو الغلو والعنف، وأخرى نحو التيارات الفكرية والتوجهات المنحرفة علمانيًا أو ليبراليًا، وتارةً أخرى نحو تياراتٍ أو فرقٍ ارتبطت بالاستعمار الغربي وتعايشت معه، ولو كانت من أهل القبلة!

إن الحرب على الفكرة الإسلامية وما يمثلها من الحركة والدعوة، واختطافها جهة الغلو والتطرف، وتصويرها على أنها عنفٌ ولَّد حركةً، وتطرفٌ أنشأ دعوةً، وغلوٌ تمثَّل في تيارٍ - كل ذلك من مكر الأعداء الذين قال الله عنهم: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَرْزُلُ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

إن اختطاف الإسلام في حركاته الدعوية السُّنية باغتيال وسطيتها واتزانها إنما هو تهديدٌ لوجوده، وتسويغٌ لاستهدافه، وسعيٌّ في استئصاله، وقد قال سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وفي هذه السلسلة بيان لمحاولات متعددة في تحريف الإسلام نظريًا وعمليًا، وتشويه وجهه النقي، وذلك بحرفه تجاه الغلو، أو اجتذابه جهة الليبرالية، لا سيما في الجانب الفكري والسياسي، أو بتحويل بوصلة الدعوة نحو ما يسمى بـ (الإسلام التقليدي الطُرقي)، أو (العقلاني الفلسفي)!

ومرةً أخرى لا تخرج هذه المساعي عن تطوير ما عرف يومًا ما بالغزو الفكري، لكنه يتخذ هذه الآونة أشكالًا وصورًا غير مسبوقة، وتُتجاوز الأفكار وبُث الانحرافات إلى صناعتها وتسويقها، ودعم أهلها، واستثمار وجودهم بين المسلمين؛ ليتم لأولئك الغزاة استهداف أهل السنة، وحصرهم بين ثنائيات الإفراط والتفريط، والانغلاق والتسيب، وفي ذلك كله اغتيال لوسطية الإسلام وأهله!

وهذا البحث الأول عن: (الاختطاف نحو الغلو والعنف)، وفيه أضواءٌ على هذه القضية، وتلك الإشكالية، وقد انتظمت مفاصله في المباحث التالية:
المبحث الأول: تاريخ الحرب على الدعوة الإسلامية، وفكرتها الأصلية.

المبحث الثاني: اختطاف الدعوة الإسلامية.. الأسباب والبواعث.
 المبحث الثالث: اختطاف الإسلام.. أهداف، وغايات، واستراتيجيات.
 المبحث الرابع: الاستراتيجيات البديلة بعد فشل خيار القوة العسكرية.
 المبحث الخامس: القوى الفاعلة في اختطاف الدعوة الإسلامية نحو الغلو والعنف.
 المبحث السادس: أسباب ودوافع قبول الاختطاف نحو الغلو والعنف.
 المبحث السابع: وسائل وأدوات اختطاف الإسلام نحو الغلو.
 المبحث الثامن: رؤى وأسباب لمواجهة محاولة الاختطاف.
 المبحث التاسع: مسالك وطرائق لمواجهة اختطاف الدعوة الإسلامية نحو الغلو والعنف.
 المبحث العاشر: أهداف ما يُسمَّى بـ«الحرب على الإرهاب»، وإنشاء تحالف عالمي لمواجهة.
 نسأل الله تعالى أن ينصر الإسلام، ويُعزِّز المسلمين، وأن يُعلي بفضله راية الحق والدين، وأن يرد كيد الكائدين، ومكر الماكرين، والله تعالى غالب على أمره، وهو سبحانه من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.
 وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

أبو عبد الله

محمد بن عبد الله

تحريراً في الروعة: ١٧/٦/١٤٤٢ هـ

٢٠/١/٢٠٢٢ م

المَبْحَثُ الأولُ

تاريخ الحرب على الدعوة الإسلامية

وفكرتها الأصيلة

مما لا شك فيه أن الحرب على الإسلام هي حرب قديمة ترجع إلى بداياته الأولى، والتي قال الله تعالى عنها: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ۚ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

ولقد عني أعداء الإسلام بصنع سبلٍ منحرفةٍ عن صراط الإسلام المستقيم، وزينوها وزخرفوها، وجعل على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه! وقد حذر الله تعالى من تلك السبل، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ثم إن أعداء الأمس هم أعداء اليوم في سعيهم للانحراف بالفكرة الإسلامية! أما الحرب على الفكرة الإسلامية المعتدلة التي تحملها الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة بجماعاتها وهيئاتها الدعوية والفكرية، فهي كذلك قديمة قدم الحركة الإسلامية ذاتها.

وإذا أرخنا لهذه الحركة الإسلامية المعاصرة من جذورها الأولى، فإننا سنذكر حركة ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، وحركة

الشيخ محمد بن علي السنوسي في ليبيا، والحركة المهدية في السودان، وحركة الشيخ عثمان بن فودي في غرب أفريقيا، وكلها دعوات وحركات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين.

ثم لا بد أن نذكر ما جاء بعد ذلك في القرن الرابع عشر مما يمثل جسم هذه الحركة والدعوة الإسلامية في شتى الأقطار والديار، ومن ذلك: جماعة الإخوان المسلمين، وجماعة أنصار السنة المحمدية، والجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية، وكلها تأسست بمصر.

وحركة بديع الزمان سعيد النورسي في تركيا.

والجمعيات السلفية في شبه القارة الهندية (أهل الحديث، والجماعة الإسلامية)، وجماعة التبليغ والدعوة في شبه القارة الهندية.

وما تفرّع وانفصل عما سبق من جماعات ودعوات وحركات وجمعيات، عمّت الوطن الإسلامي بأسره؛ بل وامتدت إلى الوجود الإسلامي خارج دياره، في أوروبا وأمريكا وأستراليا وكندا وغيرها.

إن هذه الحركة الإسلامية الدعوية قد عمّت وطبقت الأرض بأمر الله وتوفيقه، وظهرت آثارها جليّة جليّة في تدنّي واسع بين الشباب، وتنامي مشهودٍ للوعي بمؤامرات أعداء الأمة، وتأثير ملحوظٍ على الحياة بكل مجالاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وثقة واعتداد بالحضارة والثقافة العربية والإسلامية.

وبعض تلك المظاهر كافٍ في إشعال عداوات، وتأجيج محنٍ وثراتٍ، تعود إلى الصليبية تارةً، وللصهيونية أخرى، وللعلمانية ثالثة؛ وللصفوية وللباطنية آخرًا.

إن صعود الحركة الإسلامية السُّنية بمدارسها وتوجُّهاتها المختلفة يعود إلى مجموعاتٍ من الأسباب تتعلق بذاتية الإسلام، كما تتعلق بالظُّرف السِّياسي الذي تمرُّ به الأمة، كما ترتبط بالضغط على الإسلام وأهله!

ومهما يكن من أمرٍ، فلا شك أن التغوُّل الاستعماري المنسوب للغرب من جهةٍ، والاحتلال الصهيوني لفلسطين من أخرى، وتفكيك دولة المسلمين الجامعة، كان من الأسباب المباشرة لقيام تلك الدعوات والحركات المعاصرة. وأخيرًا، فإنَّ هذه الحركة وتلك الدعوة وصعودها العالمي إنما هو قدر الله الغالب، الذي لا يُغالب، وهو في جوهره ومظهره وفاءٌ عاجلٌ للوعد الإلهي بحفظ الدين، وتمكين أهله!

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وما الحركة الإسلامية المعاصرة إلا مظهر من مظاهر عظمة الإسلام، وحيويَّته، وقدرته على التجدُّد، واستعصائه على الفناء، وأصالته بأصالة الحق الذي يحمله، والخير الذي يتنامى في جوانبه.

قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وليس من معنى هذا أنه لا توجد ملحوظات أو انتقادات للحركة الإسلامية في مجموعها، أو انحرافات في خصوص بعض فئاتها أو شخصياتها، وإنما المقصود

أنها مثَّلت بجماليتها حركة بعث وإحياء في الأمة، ومواجهة سنيَّة شعبية لمشاريع أعدائها؛ سواء أكانت مشاريع صهيونية أو صليبية تسعى لاحتلال المقدسات، واستلاب الخيرات، أو علمانية تتحلل من عُرَى الدين، وتزرع الفساد في مجتمعات المسلمين، وأنها قامت ببعض الواجب عندما سكت كثير من الخيرين، وانزوى عددٌ من الصالحين، وتوارى ظلُّ كثيرٍ من المصلحين!

وأيًّا ما كانت أسباب الصعود الإسلامي، والظهور الواسع للحركة الإسلامية في المائة سنة الأخيرة، فإن هذا استدعى عداءً هائلًا في ميادين كثيرة، وبأساليب عديدة، ترجم عنها ما لقيته تلك الحركات والدعوات والشخصيات الكبرى من عنفٍ وفتنٍ ومحنٍ، ازدادت حدتها شيئًا فشيئًا، حتى إذا وصلت الحركة الإسلامية للحكم، أو شارفت عليه في مواقع عديدة - كما في السودان وأفغانستان وماليزيا وتركيا وغزة ومصر وتونس والمغرب وغيرها - تفجرت حربٌ عالميةٌ شعواء على الدعوة والحركة الإسلامية بمختلف مظاهرها وتجلياتها المعاصرة.

واتَّخذت تلك الحرب وجهًا فكريًّا، كما اتخذت وجوهاً عسكريةً وسياسيةً واقتصاديةً، وهي مجتمعة تصب مصبًا واحدًا في توهين عُرَى الإسلام ونقضها! ومن عجبٍ أن يتحدث العسكريون الغريبيون عن الوجه الفكري للحرب على الحركة الإسلامية المعاصرة!

فمن ذلك: ما قاله (دونالد رامسفيلد) وزير الحرب الأمريكي في خريف عام (٢٠٠٣م)، وأكَّده في ربيع عام (٢٠٠٦م)، وقد دارت رحى آلتة العسكرية على بلاد الأفغان وبلاد الرافدين، فقال: «نحن نخوض حرب أفكار، كما نخوض

حرباً عسكرية!«^(١).

وعلى منواله نسجت وزيرة خارجيته (كونداليزا رايس) في مقالاتها في شتاء (٢٠٠٥م) حين عبّرت بوضوح أكثر، فقالت: «إننا ضالعون في حرب أفكار أكثر مما نحن منخرطون في حرب جيوش»^(٢).

وهذا الموقف ليس خاصاً بأمريكا، بل هو موقفٌ عالميٌّ عبّر عنه -أيضاً- (توني بلير) رئيس وزراء بريطانيا بقوله: «إن الوقت قد حان لتتوحد إدارات الحكومة البريطانية من أجل تحقيق النصر في حرب الأفكار»^(٣).

وهذا ما حدا ببعض المفكرين الغربيين -كـ (كيسنجر) وغيره- أن يطلق على هذه الحرب مصطلح: (الحرب العالمية الثالثة)، ويؤرّخ لبدائها فعلياً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر!

فهذا تأريخهم للحرب الحاضرة على الحركة الإسلامية المعاصرة، أما تاريخ الحرب على الإسلام ذاته فقديم قدم الإسلام، يقول الكاتب والقائد الإنجليزي (جلوب باشا) (١٩٨٦م): «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»^(٤)، يقصد بذلك بزوغ فجر الإسلام!

(١) صحيفة الواشنطن بوست في مارس ٢٠٠٦م.

(٢) صحيفة الواشنطن بوست في ديسمبر ٢٠٠٦م.

(٣) مؤتمر صحفي عقد في ١٧/٤/٢٠٠٤م.

(٤) مقال بجريدة الشرق الأوسط، لجمال شاهين، عدد (٩٩١٣) في ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٦هـ، نقلاً عن كتاب للكاتب بعنوان: (محمد).

وتقول د. (كارين أرمسترونج): «علينا أن نتذكر أن الاتجاه العدائي ضد الإسلام في الغرب هو جزء من منظومة القيم الغربية التي بدأت تتشكل مع عصر النهضة، والحملات الصليبية، وهي بداية استعادة الغرب لذاته الخاصة مرة أخرى، والقرن الحادي عشر كان بداية لأوروبا الجديدة، وكانت الحملات الصليبية بمثابة أول رد فعل جماعي تقوم به أوروبا الجديدة»^(١).

وما يقوله القسّس والمفكرون يؤكده -أيضاً- الساسة والاستراتيجيون!

يقول (أيوجين روستو) مستشار الرئيس الأمريكي (جونسون) لشئون الشرق الأوسط حتى عام (١٩٦٧م): «يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافاً بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية!»^(٢).

فإذا انتهينا إلى الرئيس الأمريكي (نيكسون)، نجده يقول: «إنه ليس هناك صورة في ذهن وضمير المواطن الأمريكي أسوأ صورة من العالم الإسلامي»، ثم يبين مآلات الحرب بقوله: «وسوف يُضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو لمواجهة الخطر العدواني للعالم الإسلامي»^(٣).

ثم جاء الرئيس الأمريكي (بوش الابن) ليعلنها في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر حرباً صليبية!

(١) الأصول الفكرية لموقف الغرب من نبي الإسلام، د. باسم خفاجي (ص ٦٠).

(٢) نقلاً عن: قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام، أيدوا أهله، جلال العالم (ص ٣١).

(٣) الفرصة السانحة، نيكسون، ترجمة: أحمد صدقي مراد (ص ٢٨، ١٣٨، ١٥٢، ١٥٣).

ثم يُفصّل تلك الحرب بقوله: «نحن نحارب في جبهاتٍ مختلفةٍ -عسكريةٍ، واقتصاديةٍ، وسياسيةٍ، وفكريةٍ- ونحن واثقون أننا سننتصر في كل جبهة»^(١).

وأخيراً، قال الرئيس (أوباما) في كتابه (جرأة الأمل): «إن أمريكا تخوض في الشرق الأوسط صراعاً مسلحاً، وتخوض في نفس الوقت حرب أفكار!».

وبناءً على ما سبق، فإن اختطاف الإسلام والحرب على أفكاره رديفٌ للحرب العسكرية والاقتصادية والسياسية، وهي حربٌ وثيقة الارتباط بصراع الحضارات الذي صكّ مصطلحه (هنتنجتون)، وهي شديدة التعلُّق بـ(صراع الأصوليات) الذي تحدّث عنه (إدوارد سعيد)، وهي بتعبير (برنارد لويس): «صراع الأديان»!

ولقد اعتمد الغرب في تلك الحرب أربع وسائل رئيسة، وهي: (التنصير، والاستشراق، والاستعمار، والتغريب)، وعمل فيها جميعاً -وعلى التوازي- عبر مسارات متعددة ومتنوعة؛ لتنتهي إلى حزمة من الآثار شديدة السلبية على العالم الإسلامي.

ولقد اختار الغرب في الحرب الفكرية جوانب متعددة من المساعي التي تهدم الفكرة الإسلامية، ومن ذلك: التشكيك في مصادر الإسلام الأولى من الكتاب والسنة، وصحة نبوته ﷺ، وإلقاء الشبهات حول الشريعة وأحكامها، واقتراء الأكاذيب حول شخص النبي ﷺ وصحابته وأئمة المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، واختراع تعليقات وتفسيرات باطلة لأحداث التاريخ الإسلامي، وتزيين أفكار وتصورات باطلة بديلة، ودس السموم الفكرية المدمرة، وإلى يوم

(١) نقلاً عن معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، عبد العزيز مصطفى كامل (ص ٢١٠).

الناس هذا ما يزال الكيد مستمرًا!

ومن أحدث تلك المسارات: اختطاف الحركات الداعية إلى عقيدة الإسلام وفكرته الوسطية نحو الغلو والتطرف والعنف، ومن ثم نبزها بمصطلح: الإرهاب الذي لا يعدو -لدى أكثر ساسة الغرب اليوم- أن يكون هو الإسلام السني خاصة الذي يمثل الأغلبية في العالم الإسلامي بعقيدته، وشريعته، وقيمه، وكل ما ينتسب إليه.

وقد بذل الغرب في هذا السبيل ألوانًا من البذل، فعمل على صناعة واستثمار صور من الغلو والتطرف، ثم عمل على استغلال تلك الصور بتعميم ما فيها من غلو على الحركة الإسلامية بجمليتها، ووصمها وأهلها بالإرهاب!

فإذا ما حانت نظرة إلى ما جرى صناعته من الغلو والعنف، وإخراجه بصورة سينمائية في العراق وسوريا -وقد جعلوه ذريعة مناسبة وفرصة مواتية للتدخل العسكري من جهة، ولتشويه صورة الإسلام وأهله من جهة أخرى- أدركنا كما أدرك غيرنا أنها حربٌ ممتدة إلى الوجود الإسلامي في العالم بأسره، بما في ذلك الوجود الإسلامي في الغرب نفسه!

حقيقة الحرب الفكرية المعاصرة:

إن الحرب الفكرية المعاصرة تدور رحاها بين (الإسلامية) و(اللا دينية)،
المُسَمَّاة بـ(العلمانية)!

والعلمانية فكرة خبيثة الجوهر، ونكدة الثمر، فهي دينٌ يُقصي كلَّ دين،
ويحاول أن يملأ في الحياة كلَّ فراغٍ يملؤه الدين!

فالعلمانية لها تمثيلات وتجليات كثيرة في مجالات الحياة كافة، فتمثّل وتتجسّد في الحياة السياسية في صورٍ؛ منها: الديمقراطية، وتنشر فكرتها المسمومة في القوانين والتنظيمات عبر نظرية السيادة، وتتبدّى في الحياة الاجتماعية والفكرية في أثوابٍ؛ منها: الليبرالية، وتصبغ الحياة الاقتصادية بالرأسمالية والشيوعية، وتُشيع الإلحاد في الأدب من خلال تُرّهات الوجودية والحدائث!

ولها في كل مجال وتحت كل نظرية مبادئٌ وضوابطٌ تحافظ على جوهر اللادينية الإلحادية، فهي مظلة عامة تجمع كل مَنْ قَلَى الدين وهجره، أو من حاربه وناوأه.

فإن حانت من العلمانية التفاتةٌ إلى دينٍ ما -تقديرًا أو توقييرًا- فللنصرانية المحرّفة التي تقول: «دَعْ ما لقيصرَ لقيصرَ، وما لله لله»!

ومع ثورة الغرب على دينهم النصراني المحرّف، والذي ذاقوا على يدي رهبانه وكهنته سوء العذاب، وانتصار العلمانية في شقّها الليبرالي والرأسمالي، إلا أنه عند مواجهة الإسلام تحضر الكنيسة النصرانية كما يحضر الكنيس اليهودي فورًا؛ وذلك لاستحضارهم الحروب الصليبية في خلفيّتهم الفكرية!

وهذا ما فسّر نُطق كثيرٍ من قادتهم السياسيين بمصطلحات من أمثال: (الحروب الصليبية، والحروب المقدّسة، والحرب العادلة)، ونحوها من مصطلحات لها خلفياتها الدينية والتاريخية!

وإذا كان قادتهم قد لزموا الحياد بشأن النصرانية واليهودية، فإنهم مع الإسلام ليسوا كذلك، وما ذاك إلا لأنه الدين الذي يربط بين الدين والدنيا، وبين الدنيا والآخرة، وبين مناشط البشر في هذه الحياة، وبين عبادة الله!

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فهذه الحرب -في حقيقتها- إحدى صور الحرب الباردة على المجتمعات الإسلامية في ثوابتها الفكرية والمنهجية.

فهي حربٌ وثيقة الارتباط بصراع الحضارات وما دار في فلكه من مصطلحات، وهي من جهةٍ أخرى رديف للحرب العسكرية؛ إذ ما من مواجهةٍ عسكريةٍ إلا وراءها مواجهة فكرية بين حقٍّ وباطل، أو بين باطلٍ وباطل، وهذا ينسحب على الحروب العالمية الماضية انسحابه على الحرب العالمية الحاضرة على الإسلام وأهل السنة اليوم^(١)!

وما الحرب العالمية على الإرهاب اليوم إلا حربٌ على الإسلام الشني بعقيدته وشريعته وقيمه ودعوته في المشارق والمغارب!

يقول (بول كروجمان): «إن تهديد الإرهاب معضلة يجب حلُّها؛ بل سائحة سياسية يجب استغلالها!»^(٢).

وهذا ما عبَّر عنه (روبرت ساتلوف) بعد عامٍ واحدٍ من أحداث سبتمبر (٢٠٠١م)، فقال في كتابه: (معركة الأفكار في الحرب ضدَّ الإرهاب): «إن النظرية الجديدة في حرب الأفكار تعني أن أمريكا بصدد فرض الثقافة الأمريكية

(١) يراجع كتاب استهداف أهل السنة، لنبييل خليفة، مركز بيلوس للدراسات، بيروت، ٢٠١٤م.

(٢) مقال: ١١ سبتمبر.. المفصل الكارثي في تعايش الحضارات، إياد أبو شقرة، صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ١٧/٩/٢٠٠٦م.

على عقول الناس في الشرق الأوسط!».

والحقيقة أن هذه الحرب لا تقف عند حدود الشرق الأوسط؛ بل هي ممتدة إلى الوجود الإسلامي في العالم بأسره، بما في ذلك بلدان أوروبا.

بين مصطلح (حرب الأفكار)، ومصطلحات أخرى:

إن مصطلح: (حرب الأفكار) دالٌّ على ما يدل عليه مصطلح: (اختطاف الإسلام)، ومفيدٌ ما أفاده مصطلح (الغزو الفكري)، وتعدُّ الأسماء لا يشوُّش في القديم والحديث، فهي حرب الأفكار التي عبَّر عنها في حقبة قريبة بالغزو الفكري، وهي جيِّل من أجيال الصراع الحضاري، أو الصِّدام الأصولي، وشكِّل من أشكال عولمة السيطرة على العقول، وتسويق الفكر الغربي، وترويج الليبرالية في الثقافة والفكر والاجتماع، فهي حرب القيم، كما هي حرب النصوص!

ولا تبعد هذه الحرب الفكرية عن مفهوم: (عصرنة الإسلام)، أو (علمنة الإسلام)، أو (تغريب الإسلام)، والتأويل المعاصر في المفاهيم الإسلامية. وهذه الحرب ترتبط بوشائج لا تخفى بظاهرة ما سُمِّي بـ(التدين الجديد)، و(الدعاة الجدد)، و(تجديد الخطاب الديني).



المَبْحَثُ الثَّانِي

اختطاف الدعوة الإسلامية ..

الأسباب والبواعث

لهذه الحرب الفكرية أسبابٌ دعت إليها، وبواعثٌ حرَّكت ألتها، وهذه الأسباب تتغيَّ غاياتٍ معينة، وترمي إلى أهداف محدَّدة، والمسلم -في عالم اليوم- مدعوٌّ لأنْ يتعرف على أسباب هذه الحملة وأغراضها، ويكتشف أماكنها وآلياتها حتى يتمكَّن من مواجهتها بسلاحها، وبما يمنع وصولها لأهدافها، أو على الأقل يتجنب شرها، ويتقي ضررها، ثم إن الغيور على دينه، الحريص على سدِّ الثغور التي ينفذ منها العدو معنيٌّ باستبانة سبيل المجرمين، ومعرفة مكائد المفسدين في الدين.

وقديماً وحديثاً استعمل من أبناء الإسلام مَنْ إليه قد أساء، وأُتيت أُمَّتُه من قِبَلِه، وسعى في تلك المهالك لحتفه بِظُلْفِه! وهو وإن لبسَ جلد الضَّأن من اللِّين، إلا أنه عاش في مِسْلاخ شيطان، كلما أمكنته فرصة من أمته عقرها! وكلما لاحت له قدرة غدر بها! فهو من أعدائها في ثياب أبنائها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ [النساء: ٤٥].

وفي هذا الصدد: فإنَّ أهم ما يُذكر من البواعث ما له تعلُّق بالواقع المعاصر، وفيما يلي جملة من أهم ما ينبغي أن يلاحظ في هذه الحرب المسعورة على الدعوات الإسلامية السنية المعاصرة في نحو قرنٍ من الزمان:

أولاً: المدُّ الدعوي المعاصر:

على مدار القرن الأخير من الزمان، ومحاولات الاستعمار الغربي على أشدها في كَبَت المدِّ الدعوي المنسوب للأمة الإسلامية بجماعاتها الدعوية، وهيئاتها العلمية، وأنشطتها التربوية، وشخصياتها الاعتبارية في كل مضمار!

ولقد سعى المعنيون بهذا الشأن في الغرب مع أوليائهم في الشرق -بكل جهد- في وأد تلك الجهود، ومحاصرتها في أطُر من القطرية والإقليمية، وإدخالها إلى أتون محنٍ وفتنٍ وعذاباتٍ واضطهاداتٍ، وتشويه صورتها ورجالاتها وإنجازاتها، فما زادها البلاء إلا شدةً، ولا التضيُّق والحصار إلا قوةً، ولا الفتنُ إلا تمسُّكًا وثباتًا، وبدت نوعيتها في السنوات الأخيرة أصلب عودًا، وأقَدَرَ على الانتشار في العالم، والانتفاع بمعطيات التقنية في الدعوة عبر الفضائيات والمواقع الإلكترونية، وشبكات التواصل الاجتماعي وغيرها!

كما لوحظ نضجٌ نسبيٌّ في جوانب الفكر الإسلامي، والوعي الواقعي، والفهم الحاضر لمكائد الخصوم، والقدرة على تفويت فرص الاستئصال والإجهاض في الجملة.

فتحصَّل من ذلك: حالةٌ من الوعي الراشد، والثبات المنهجي، وما كان محلًّا من الأعمال الدعوية، والأنشطة الخيرية، والجماعات الدعوية الإسلامية - قد غدا عالميًّا. ولا يخفى أنه بمجرد قيام ثورات الربيع العربي، انطلقت تلك الدعوات الإسلامية الضاربة بجذورٍ قويةٍ في مجتمعاتها في محاولاتٍ لاستئناف حياةٍ جديدةٍ؛

بناءً على حضورها الإسلامي الفاعل، وقدرتها على تحريك الجماهير، وعملت على الانخراط في فعالياتٍ سياسيةٍ كثيرةٍ، وغدت أقوى وأقدرَ على تحريك الأمة. وبغضّ النظر عمّا وقع من تسرّع أو سلبياتٍ أو استعراض غير راشدٍ للقوى، فقد ألقى كل ذلك بظلالٍ كثيفةٍ من التخوّفات، وزاد من الرغبة في القضاء على تلك الدعوات، وتقليص فاعليتها بكلّ سبيلٍ، لا يُستثنى من ذلك توجّه - دعوي، أو علمي، أو سياسي، أو جهادي - من تلك التوجّهات المنسوبة إلى أهل السُّنة في البلاد العربية عامة.

فازداد أوار الحرب على الإسلام المقاوم للهيمنة الغربية، والاستعمار، والعلمنة، والتغريب، والعولمة الضارّة في جميع الميادين، وشتّى مناحي الحياة. وهنا تتعاظم المخاوف من الإسلام السلفي الأصولي كما يدّعون، كما تتجه الأصابع بالإشارة إلى اتهام الإسلام السياسي الإخواني كما يزعمونه! ولا شك أن اختطاف هذه التوجهات، وجَرّها جميعاً نحو الغلو والعنف والتطرف - يفتح أبواباً من الذرائع للاستئصال والبطش والتنكيل والتكبيّل، بما لا يتيسر لتلك القوى في حال الالتزام بالوسطية الشرعية، والاعتدال السُّني، والبعد عن المواجهات غير المتكافئة.

ثانياً: الإخفاق العسكري الغربي:

وقد تبدّى هذا الفشل الذريع واضحاً في ثلاث حروب عسكرية متتابعة في الثلاثين سنة الأخيرة على بلاد الرافدين تحت شعار: (الحرب على الإرهاب)،

وكانت النتيجة في جميعها الفشل!

وفي حملةٍ ظالمةٍ على بلاد الأفغان حصد الأمريكان مرارة الهزيمة، وعادت جثامينهم في الطائرات التي حملتهم أول مرة في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر مُحَمَّلَةً بالخزي والخذلان.

وكما سقطت هيبة جيش الإلحاد الروسي في حرب أفغانستان، فقد مُني بنفس النتيجة الأمريكان، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

وعلى رُبى غزّة ذاق اليهود وأولياؤهم هزيمةً مذلّةً، مرةً بعد مرة، حتى إذا بلغ الاستكبار والعلو بالباطل مداه، وظن الصهاينة أنهم قادرون على المسجد الأقصى في آخر رمضان ١٤٤٢هـ/ مايو ٢٠٢١م، وسعوا لاقتحامه وحصاره، وإدخال المستوطنين الصهاينة إلى ساحته ومسجده القبلي - تصدّى المقدسيون لهم بصدورٍ عاريةٍ، فلما دخلوه عليهم بالقنابل المسيلة للدموع وقنابل الصوت - في تدنيسٍ لحرمة المسجد في الشهر المعظم - أمطروا بصواريخ غزّة الأبيّة، وذاقوا من حممها التي طالت الأراضي المحتلةّة كافة ما لم يكن لهم في حسابان!

ولقد كان الغرب يتجملّ بشعاراتٍ برّاقةٍ من العدل، وحماية الحقوق والحريات، فإذا به يتخلّى عن ذلك جميعاً، ويتحرك بعنفٍ بالغٍ لا يكون من نتيجته إلا الفشل الذريع في تلك الحروب، والتي أدركوا من خلالها أن الحرب المباشرة - لا سيما البريّة منها - لن يرجعوا منها إلا بخُفّي حنينٍ!

ولن يستفيدوا من تلك العريضة إلا كسّر النظام العالمي الذي صنعوه، وإنهاء صلاحيته للبقاء، مع سقوط هيبة تلك الجيوش المُدجّجة بأنواعٍ من أسلحة الدمار الشامل، كما أن صنائعهم في بلاد العرب قد أصبحوا في حرج بالغٍ أمام شعوبهم التي صارت أوعى من خداعهم، وأكبر من أن تنطلي عليهم أكاذيبهم!

وبات واضحًا لكل ذي عينين أن اعتماد خيار القوة العسكرية الضاربة لا يمكن أن يكون هو الحل الحاسم والنهائي في الشرق بحال!

وإنّ المتأمل في الحشود الأمريكية على أفغانستان، والتي بلغت نحو (٢٥٠,٠٠٠) مقاتل أمريكي، مع (٥٠٠) طائرة مقاتلة، و(١٥٠) سفينة حربية، بجانب قوات الحلفاء البريطانية، ودعم الناتو- ليدرك بجلاءٍ أن الغرب قد استنفر قوته في استعراضٍ هائلٍ للقوة في مواجهة الإرهاب المزعوم، والذي تقول دراسات (فوكوياما)، و(هنتنجتون): إن النسبة الغالبة من معتنقي هذا الإرهاب يرجعون إلى الدول العربية، ونسبتهم (٨٢٪)^(١).

إن المتأمل في نتائج هذه الحرب يدرك كم كانت مُخيبةً للآمال، بحيث إن الأمريكان -وبعد خمسة عشر عامًا وزيادة- تقلّص عدد قواتهم إلى أربعة عشر ألفًا، وأخذوا يبحثون عن خروجٍ يحفظ ماء الوجه بعد تفاوضٍ مع طالبان (الإرهابية) بزعمهم!

ثم بعد جولات طويلة من المفاوضات، وجرعات مريرة من العذابات، خرج الأمريكان اليوم كما دخلوا أفغانستان أول مرة، وردّهم الله بغیظهم لم ينالوا خيرًا!

(١) العدد السنوي من مجلة النيوزويك الأمريكية، ديسمبر (٢٠٠١م)، فبراير (٢٠٠٢م).

ولم يُعَدُّ لهم من طموح فيها إلا أن يقبل نظام طالبان بالانخراط في نظامهم العالمي مع إقراره على حكم أفغانستان!

ولم تكن العراق بأحسن حالًا بعد دخولهم لها، فقد أصبحوا هدفًا سهلاً للمجاهدين والمقاومين، فكان لا بد من البحث عن استراتيجية أخرى توازر الحرب العسكرية لينجحوا فيما فشلوا فيه عبر تبني لونٍ جديدٍ من القتال الداخلي، كما سيأتي بيانه.

ثالثًا: تنامي الرُّقعة الإسلامية في الغرب، وتحسُّن صورة الإسلام نسبيًا هنالك:

أطلق (جورج غاينسفاين) السكرتير العام لبابا الفاتيكان تحذيرًا مما وصفه بـ(أسلمة الغرب)^(١).

ونشرت صحيفة (لفرانس ويست إكلير) إحصائيات تشير إلى زيادة في عدد الداخلين إلى الإسلام هنالك، ففي عام (٢٠٠٧م) دخل حوالي (١١٤) ألف مسلم عربي في فرنسا وهولندا وألمانيا وشمال بلجيكا والنمسا؛ بحيث إن أعداد الداخلين ومعدلات المقبلين على الإسلام بعد الحادي عشر من سبتمبر تضاعفت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل الأحداث^(٢).

ونشرت صحيفة (ها آرتس) اليهودية: أن أجهزة المخابرات الأمريكية والأوروبية والموساد قدّموا تقاريرَ مطوّلةً إلى وكالة المخابرات الأمريكية

(١) جريدة الشرق الأوسط، السبت ١٣ رجب ١٤٢٨هـ/ ٢٨ يوليو ٢٠٠٧م، العدد (١٠٤٦٩).
(٢) مقال: انتشار الإسلام في أوروبا وراء تحذيرات سكرتير البابا، خالد أبو بكر، موقع: إسلام أون لاين الإلكتروني، ٢٧/٧/٢٠٠٧م.

يحذرون من ارتفاع معدل انتشار الإسلام في الغرب رغم كل الأزمات التي تحيط بالمسلمين، وأن عامي (٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ م) شهدا اعتناق أكثر من خمسين ألف شخصٍ أوروبي للإسلام أغلبهم من النساء، وأن الإسلام أصبح ينتشر بطريقةٍ مخيفةٍ، وأن المسلمين الجدد يعملون على تأدية جميع شعائر وطقوس الإسلام بمتهى الدقة، ليصبحوا أكثر تدينًا من المسلمين بالوراثة، وهو أمرٌ يستدعي الوقوف عنده^(١).

وتحويل وجهة هؤلاء الذين دخلوا الإسلام من الغربيين إلى إسلامٍ متصالحٍ ومناسبٍ للغرب - أمرٌ لا بد منه.

كما لاحظ المراقبون الغربيون أنه بعدما سمح الدستور الأمريكي (١٩٨٨ م) بتدريس الأديان كافة في المناهج التعليمية، نال الإسلام نصيبًا من ذلك، وكان له أثره في تصحيح الصورة السلبية التي تركها الاستشراق الذي امتدَّ لقراءة قرنين من الزمان، وخلف نحوًا من ستين ألف كتابٍ عن الشرق المسلم.

كما ساعد على إحداث تلك التغييرات الإيجابية إعدادُ معايير خاصة للتعبير والكتابة في المقررات الدراسية، تمنع من إسقاط رأي المؤلف في ثنايا عباراته، أو تضمينه أحكامًا لوصف دينٍ أو عقيدةٍ ما، وقد صدرت توصياتٌ من أكثر من جهةٍ دوليةٍ تدعو إلى مراعاة تلك الضوابط^(٢).

(١) مقال: عشرات الفرنسيين يُقبلون على اعتناق الإسلام يوميًا، بقلم: كلار شارتيه ٣/٤/٢٠٠٦ م، صحيفة لأكسبريس الفرنسية.

(٢) من تلك الجهات: معهد السلام بواشنطن الذي أنشئ عام ١٩٨٤ م بقرار من الكونجرس.

واستدعى كثيرون مقولات منصفة لكُتَّاب ومفكرين وأدباء وساسة وأكاديميين اتفقوا جميعاً على إنصاف الإسلام، وكلهم يهتمون إلى العصر الحديث، وبعضهم دخل بالفعل في الإسلام!

إن هذا الانتشار والاعتدال استفزَّ (هنتجتون) مرةً أخرى بعد أكثر من عشرة أعوامٍ من إصداره لكتابه: (صراع الحضارات)؛ ليكتب عام (٢٠٠٤م): (من نحن؟)؛ مُنتقداً ما سمَّاه: (الإسراف في تدريس ثقافات وأديان الأمم الأخرى، ومن بينها: الإسلام!).

وتجاوب معه عددٌ من المفكرين اليهود، مثل: (مارتن كريمر) أستاذ الدراسات الشرق أوسطية، ومدير مركز (موشى ديان) بجامعة تل أبيب؛ ليشنَّ هجوماً على تلك الأقسام بالجامعات الأمريكية التي تدرِّس الإسلام، وتُعنى بتقديم صورةٍ معتدلةٍ عنه!

وأيّاً ما كان الأمر؛ فإنَّ الحضور الإسلامي في الغرب أصبح لافتاً ومُستعدياً لأصحاب التوجه الأصولي الإنجيلي المتطرف، وتزامن مع الصعود السياسي لليمين المتطرف في أوروبا وأمريكا على حدٍّ سواء.

من هنا كان لا بد للـ(إسلاموفوبيا) ودوائر صناعتها أن تعمل على الأقليات المسلمة هنالك بأنواعٍ من التشويه، وصورٍ متعددةٍ من التشويش، كان من أخطرها: صناعة الغلو، ومن ثَمَّ استثماره، فضلاً عن افتعال أسبابٍ لنيز المسلمين هناك بتهم التطرف والإرهاب، واستدراج بعض المنحرفين والجهلة من أبناء تلك الجاليات المسلمة لممارسات تُشوّش وتُشوّه الجميع هنالك.

ومن ثمَّ عُرفت أحداث عنف ضد المسلمين من بعد الحادي عشر من سبتمبر، وتعرّضت مساجد ومراكز إسلامية لاعتداءات متكررة، وتعرّضت المظاهر الإسلامية للتضييق والحصار، وكانت الطامة ما جرى في (الدنمارك) سبتمبر عام (٢٠٠٥) من نشر الرسوم المسيئة للنبي ﷺ، ثم أُعيد نشرها في (١٤٣) جريدة تنتمي إلى (٥٦) دولة؛ تعبيرًا عن التضامن مع الصحيفة الدنماركية، وُصودِرَ بعدها حق المسلمة في غطاء وجهها في فرنسا وغيرها، وقامت حربٌ على المآذن في سويسرا وغيرها!

ثم دخلت جريدة (شارلي إبدو) الفرنسية على خط الإساءات المتكررة مرة بعد مرة، لتنتهي الأمور إلى استفزازات، وتصرفات غير مسئولة، ومقاطعة شعبية إسلامية عالمية للمنتجات الفرنسية بعد تصريحاتٍ مسيئةٍ من رئيس فرنسا!

وأخيرًا، فإنَّ محافظة الأقليات المسلمة على هُويّتها، واستعصاءها على الذوبان في عقائد وثقافات غيرها، وحرصها على الوجود الفاعل، والمشاركة الإيجابية - أصبح مصدرًا للقلق عند كثيرٍ من الدوائر المتعصبة، ومع تنامي تلك الأقلية عددًا، غدا البحث عن وسيلةٍ لتقليص حضورها أمرًا مُلِحًا عند دوائر سياسية ودينية متعددة، ولمّا كانت تلك الأقليات المسلمة ترجع في جزءٍ منها إلى أهل البلاد الأصليين من الغربيين، فقد صار الأجدى نفعًا في هذا السبيل هو تحويل أفكارهم، واستبدال دينهم!

رابعًا: العداء الديني للإسلام وأهله:

وهذا معلومٌ منذ فجر الإسلام، ومقالاتهم في ذلك معلومةٌ، ويتبدّى هذا العداء في العصر الحديث في تصريحات رجال الكنيسة غربًا وشرقًا.

ومعلوم أن السبب الرئيس لهذا العداء هو التناقض الهائل بين التوحيد والتثليث، والإخلاص والشرك والوثنية!

فقبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر بنحو سنتين، قال الكادرينال (بول بوبار) مساعد بابا الفاتيكان، ومسئول المجلس الفاتيكاني للثقافة في حديث لصحيفة (لو فيجارو) الفرنسية: «إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوروبا والغرب عمومًا»^(١).

ورُصدت للبابا (بندكت السادس عشر) -من بعد- تصريحاته المسيئة.

وفي إثر تلك التعليقات والتصريحات عملت العناوين الصحفية الأوروبية على التخويف من الإسلام، وصار مألوفًا لدى الغرب عناوين، مثل:

- الإسلام يناقض الأديان الغربية، وينسفها من الجذور.

- الإسلام هو العدو المقبل بعد انتهاء الاتحاد السوفيتي.

- الدين الأكثر انتشارًا في أوروبا هو الإسلام.

- أوروبا إسلامية (٢٠٣٠م).

- الإسلام يعادي السامية.

ونحو هذا من عناوين وموضوعاتٍ تحرّض على الإسلام.

ولا ينبغي أن ينسى تأثير الأصولية الإنجيلية المتطرفة في موقفها من الإسلام، وكونها مثلت عقيدة من حكموا الغرب الأمريكي في الحقبة القريبة الماضية من

(١) مسلمو الغرب، تطلعات ومخاوف، صلاح الدين النكدلي، الدار الإسلامية للإعلام بألمانيا، الطبعة الشبكية الأولى، ١٤٣١ / ٢٠١٠، (ص ٥٧).

أمثال: (بوش الأب، والابن)، وعدد من قيادات أمريكا ومفكراتها ومؤرخيها وقُسسها، أمثال: (برنارد لويس)، و(بات روبرتسون)، و(جيري فالويل)، وغيرهم.

خامساً: وجود بوادر تطرف وغلو وعنف تدعو لاستثمارها:

مع تحذيرات القرآن الكريم والسُّنة المطهرة من الغلو الذي وقع قبل الأمة المسلمة في أمم أهل الكتاب، إلا أن ما جرى لهم قد جرى لهذه الأمة، ولأسباب كثيرة.

قال تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وفي الحديث: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ»^(١).

ولقد وجدت بذرة الغلو في العبادة مبكراً، ومتزامنة مع بذرته السياسيّة، كما أخبر النبي ﷺ بذلك، وما زالت للمسلمين -عبر التاريخ- مع الغلو والغلاة صولاتٌ وجولاتٌ.

فإذا انتهينا إلى العصر الحديث، وجدنا أسباباً للغلو قد تجذّرت مجتمعةً في بيئاتٍ ابتعدت عن تحكيم الشريعة، وغاب عنها هدي النبوة، ونشأت فيها للغلو حزمة أسبابٍ تعود للفرد والمجتمع والدولة معاً، وتعمّدت علاقات الغلو وإشكالاته الاجتماعية والسياسية، واختلطت بالأسباب الشخصية والسلوكية.

ومع غياب الفقه الراشد في ظلّ علمانيةٍ تضرب بأطنابها في مجتمعاتٍ مسلمةٍ

(١) أخرجه أحمد (١٨٥١)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وصححه الألباني.

جرى فيها إسقاط أحكام الإسلام وكثير من قيمه، بالاحتكام إلى قوانين غير المسلمين - سقطت المجتمعات في هُوَّة من التبعية الفكرية والحضارية، وتآمرت قوى الأعداء من الصليبية والصهيونية وما تحالف معها من دول رافضية ولا دينية، غدت هُوَّة الأمة ممزقة بين هذا الضعف، وذاك الغزو، واضطهدت في هذا السبيل حريات، ومُنعت حقوق، وعُذب الذين يأمرون بالقسط من الناس، وهذا - بالضرورة - مناخ يستتبت القهر، ويصنع ردّات فعلٍ من الغلو والعنف.

ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام في كل زمانٍ ومكانٍ، فقد سبقت الأمةُ الدولَ والجماعات في إعلان الجهاد ضد المستعمر أياً كان لونه وشكله ولغته، كما أعلنت الأمة الجهاد ضد الحكم الطائفي المبدّل للشرع، المستبدّ بالبدع، المتحكّم بالأهواء.

وانطلقت مسيرة التحرر في الشرق بدءاً من فلسطين إلى سوريا والعراق وليبيا، بعد أن سبق مرورها بأفغانستان والبوسنة والشيّشان إلى آخر مسيرة طويلةٍ سارها الأمة في معظم تلك البلاد بلا إمام يجمع كلمتها، ولا راية توحد صفوفها، ولا كلمة نافذة لجملة علمائها وحكمائها.

وكان من نتيجة ذلك أن مورس الجهاد والقتال في غيابٍ كليٍّ - أو جزئيٍّ - لأسباب هدايته ورشاده، فتولّدت أخطاء، وتراكمت مخالفات، ووقعت انحرافات بسبب من قلة العلم والفهم والحلم أحياناً، وبسبب من غياب الرؤية والإرادة والحكمة أحياناً أخرى!

واختلطت إيجابيات الجهاد بسلبيات وقعت، وامتزجت حسناته الخالصة بشائبة الغلو القادحة.

ولما كان أعداؤه الذين وقعت فيهم النكاية - بدءاً من اليهود في فلسطين، وانتهاءً بآخر بقعة رُفعت له فيها راية - قد ساءهم اتقاد جذوته، وانتشار فكرته، وامتداد ممارسته، فقد عملوا بطرق شتى لؤأده، وحرّفه عن وجهته، وانتهجوا في ذلك أساليب متعددة، وتوسلوا بوسائل شتى.

فمن ذلك: صناعة (الإسلاموفوبيا) في بلاد الإسلام وخارجها، فصنعوا خوفاً من الإسلام ببعض بنيه، كما هو حاصل من كافة مخالفه، وجعلوا من ذلك سبباً ونتيجة للحرب عليه!

ثم لما مُنوا بهزائم مذلة في بلاد الرافدين والأفغان وغيرها، التمسوا حيلة الاختراق، وتجسس المخابرات، وتأليب وتشجيع الانقسامات والانشقاقات، ثم انتهوا إلى حيلة شيطانية تقضي بصناعة غلو تشوبه شائبة جهاد؛ ليواجهوا بها جهاداً شابهته شوائب غلو؛ لتقوم تلك الأذرع المصنوعة والمستثمرة بمهمة قتال تلك الطوائف على الأرض، بدلاً من معركة يخوضها المستعمر الصليبي والصهيوني بدم جنوده!

فأذكوا نار الفرقة، وأمدوا الفرقاء بسلاح الفتنة، واستعملوا آلة الإعلام في التأثير على الرأي العام، وغيّبوا العلماء والدعاة واضطهدوهم، وهو ما أفضى إلى غياب قيادة حكيمة على مستوى الدول والجماعات!

سادساً: هزيمة التيار السني المقاوم للاحتلال:

إن التيار السني المقاوم يتمتع بمميزات عظيمة في الأمة الإسلامية، فهو يتميز بثبات منهجي، واستقرار فكري، ويقوم على حراسة الثوابت العلمية والعملية

للأمة، ويحمي منهج أهل السنة، ويتصدى للمناهج الزائفة، والمذاهب المنحرفة، ويناهض تيارات الإلحاد والتغريب والعلمنة جميعاً، وهذا ما يجعل الأفكار المنحرفة لا تجد رواجاً داخل المجتمعات السُّنية.

كما يتميز بتنوع في قياداته، وثراء في كفاءاته، فلا يكاد يخلو مجال علمي شرعي، أو دعوي، أو عملي تقني، أو اجتماعي، أو اقتصادي، أو قانوني من حضور سُنِّي بين رجالاته.

وهذا التيار السُّني -على تنوع مدارسه الدعوية والعلمية والسياسية والجهادية- يمتلك حضوراً إعلامياً ظاهراً، وقد ازداد هذا بعد الثورات العربية.

كما يملك هذا التيار الواسع قدرةً على الحشد الجماهيري رشّحته لمواقع سياسية وبرلمانية في عدّة دول عربية وإسلامية؛ كالكويت ومصر والمغرب وتونس والسودان وباكستان وتركيا وفلسطين وماليزيا، وغيرها، مع مصداقية أخلاقية وسلوكية تستمدُّ عمقها من الانتساب إلى الأجيال الأولى، والقرون الثلاثة الفاضلة، فهي ريادةٌ تاريخيةٌ حضاريةٌ معاصرةٌ.

وما يُنسب لهذا التيار من جهاد المستعمر في أفغانستان وفلسطين والعراق وغيرها هو جهاد يُحسب لأهل السُّنة إجمالاً.

ولقد تمكّن هذا الجهاد من مراغمة الروس والأمريكان في أفغانستان، ومواجهة احتلال العراق، ومقاومة اليهود في فلسطين وغيرها.

فالوصول إلى هزيمة هذا التيار المقاوم لكل أشكال العدوان على الأمة من خارجها، والانحراف من داخلها -يُمثّل هدفاً عزيز المنال لتلك القوى المستكبرة!

فإذا أمكن اختطافُ هذا التيار نحو الغلو الفكري والديني والسياسي والعسكري، -ومن ثمَّ إنشاء معارك وصراعاتٍ باسم مفاهيمٍ شرعية؛ كالجهاد والخلافة وغيرها، تُفضي إلى خضد وكسر شوكة هذا التيار- فإن هذا يحقق أهدافاً عدّة؛ حيث يقتتل المسلمون فيما بينهم، ويتفانون بأموالهم، ويقضون على قوّتهم بأنفسهم، بينما يبقى المستعمر في إطار التحريض والتمويل، ثم جني ثمار تصفية الإسلام المقاوم.

وإذا تقرر هذا، فإن دعماً تلقّاه الحوثيون في أول الأمر لينشئ مواجهة مع التيار السُّني في اليمن، ولتستعر حرب تأتي على الأخضر واليابس، وليدمي فؤاد اليمن الذي كان سعيداً يوماً ما!

وعلى خطٍّ موازٍ، تنشأ معارك وصراعات داخل التيار السلفي حول السنة والبدعة، والتكفير والتفسيق، والجرح والتعديل، بحيث يبدّع هؤلاء الفرقاء بعضهم بعضاً، ويسقط أولئك الدعاة والعلماء أنفسهم بأنفسهم أمام أتباعهم وأمتهم، بما ينتهي إلى فقدان الثقة بهم جميعاً، وانصراف الأمة عنهم!

والغرب يقوم اليوم -مع أوليائه- بعملٍ مزدوجٍ، فهو يُوجدُ المسوِّغات، ويهيئُ المناخات المناسبة لاستنبات بذور الغلو والعنف، ويسعى -في ذات الوقت- لتدمير الاعتدال، ولحرب أهله، ويمزق النسيج الوطني بما يستطيع من طائفيةٍ يبعثها، ولُحمةٍ وطنيةٍ يمزقها، ثم يُبقي على الغلاة بدعمٍ خفيٍّ لهم، فيفتح الباب للإبقاء على الطغاة، وتثبيت عروشهم في وجه أولئك الغلاة الإرهابيين!

كما يُوجدُ بذلك مبرراتٍ ودواعي التدخل العسكري في بلاد المسلمين؛ للخلاص من الغلاة الذين مهّدوا الطريق للمستعمر بحربهم على أهل السنة، وتهيئة

طريق السيطرة وتعييده للتحالفات الغربية!

وما جرى على أيدي غلاة العراق وسوريا، وأخيرًا في أفغانستان ضد طالبان، لا يخفى على ذي عينين!

والغرب اليوم يسعى لتدمير اليمن عبر إمداد الفرقاء بالسلاح وأسباب الدمار بطرق متعددة، مع رعاية نباتات الغلو وتياراته المختلفة، ولا يخفى أنه كلما أوشكت تلك الحرب على النهاية، تدخلت القوى الباغية لتدعم انقلابًا حوثيًا إيرانيًا، ولتسمح بانقلاب آخر في عدن؛ ليتفتت اليمن المقاوم إلى دول ثلاث: شرعية، وحوثية، وانتقالية! ومن أهم أغراض هذا التقسيم: ألا يتمكن أهل البلد السنيون من حكم اليمن، وهو الذي لأجله صنعت هذه الفتنة!

وغني عن البيان أن الذين آيدوا وأمدوا الحوثيين بالمال والسلاح في فترة سابقة هم من يصطلون بنارهم اليوم!



المَبْحَثُ الثَّالِثُ

اختطاف الإسلام.. أهداف وغايات واستراتيجيات

لاختطاف الإسلام، ولحرب الأفكار الموجَّهة ضد العالم المسلم اليوم غايةٌ عظيمة ونهاية كبرى تتعلق بالإسلام من جهةٍ، كما تتعلق بأبنائه من جهةٍ أخرى.

فأمَّا ما يتعلق بالإسلام ذاته، فتغييره وتبديله في فهم أتباعه له، وفي نظرهم إلى أصوله وقواعده، ومحكمات أحكامه وشرائعه، وفي إلزامية ثوابته، وسمو مقاصده، بل وفي تعاملهم مع تراثهم الذي يشرح كتاب ربهم، وسُنَّة نبيهم ﷺ، وهذا من خلال عملية تضليلٍ كبرى!

ومن تصريحاتهم الدَّالة على معنى تغيير الإسلام ومداركه:

يقول (رامسفيلد): «إن تلك الحرب تستهدف تغيير المدارك، وإن من المحتمَّ الفوز فيها، وعدم الاعتماد على القوة العسكرية وحدها»^(١).

ويقول (توني بلير): «إذا كنتم تريدون أن تنقلوا الحرب إلى أرض الأعداء؛ فعليكم أن تهزموا أفكارهم ودعايتهم إلى جانب هزيمة مخططاتهم»^(٢).

(١) مقال الواشنطن بوست في ديسمبر ٢٠٠٥م.

(٢) مقال الواشنطن بوست في مارس ٢٠٠٦م.

وتُحدّد (كونداليزا رايس) الهدف بدقة، فتقول: «المهمة الأساسية في حرب الأفكار تتعلق بالترويج للقيم الأمريكية المتمثلة في الحرية والديموقراطية، ونظام السوق الحر»^(١).

وأما ما يتعلق بأبناء الإسلام أنفسهم، فتحويل انتماءاتهم من إسلامهم الأصيل إلى انتماء تاريخي، وعواطف نحو الماضي، لا علاقة لها بحياتهم، ولا هيمنة لها على سلوكهم وممارساتهم، مع الإبقاء الشكلي -إن أرادوا- على الإسلام في هُويّاتهم، وأوراقهم الشخصية والثبوتية!

وعن هذه الغاية قال (رامسفيلد) في تصريح له في أكتوبر عام (٢٠٠٣م): «نريد لشعوب الشرق الأوسط أن يكون إسلامها كإسلام الشعوب المسلمة في شرق أوروبا»^(٢).

وهو إسلام ذاب وغاب في قاع العلمانية الغربية الأوروبية بتجلياتها الليبرالية والرأسمالية، إلا بقايا من هُويّة وشعائرٍ تعبدية، وأهله اليوم آخذون في التعافي بحمد الله تعالى.

وبناءً على ما سبق، فإن الاستراتيجية العليا لهذه الحرب تقوم على حرب الفكرة الأساسية في الإسلام، وكل ما تفرّع عنها، وذلك عن طريق مقاومة الفكرة الأصلية بفكرة بديلة من نفس جنسها، لكنها مزيفة، تحوّلت تحت وطأة التغيير

(١) مؤتمر صحفي في ١٧/٤/٢٠٠٧م.

(٢) من مقال: حرب الأفكار بين بأس الأمريكيين ويأسهم، د. عبد العزيز كامل، مجلة البيان، عدد (٢٣٨)، جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ.

والتعديل الجوهري من الفكرة الأصلية إلى نسخة باهتة، لا روح فيها، ولا قدرة لها على إثبات نفسها، أو مواجهة غيرها.

لقد قامت استراتيجية التنصير الأولى والمواجهات الفكرية عبر التاريخ القديم على مقاومة الفكرة الأصلية بفكرة أصلية أخرى مضادة لها، أما في ظلّ حرب الأفكار المعاصرة؛ فإن الاستراتيجية الأساسية لا تُعنى إلا بمقاومة داخلية، تُحدث تغييراً وتعديلاً في الأفكار ذاتها، وهو ما أطلق عليه اسم: (الأفكار البديلة والمعدّلة)، ومن ثمّ يتحقق شقّ المسلمين إلى شقين كبيرين: متطرفين، ومعتدلين!

ثمّ تضع الإدارة الغربية لحرب الأفكار عبر مؤسسة (راند) وغيرها مواصفات ومميزات وخصائص لأولئك المعتدلين -بزعمهم- ليميزوا عن غيرهم من المتطرفين!

ثم يُكلّف المعتدلون بمواجهة المتطرفين فكرياً ومنهجياً، ثم عسكرياً إن لزم الأمر.

ولا مانع لدى الإدارة الغربية بسياسيّها وعسكرييّها أن تعين المعتدلين في حربهم الفكرية والسياسية والعسكرية على حدّ سواء!

بل إنّها تتدخل من تلقاء نفسها لدعم الاعتدال -المزعوم- عسكرياً تحت شعار: (الحرب على الإرهاب)!

والثابت من الواقع أنه لا مانع لديها -في الأصل- من صناعة واستثمار وتشجيع الغلو حتى تشنّ الحرب عليه، وعلى أهل الإسلام المقاومين للتغيير والتعديل باسم: (الحرب على الإرهاب).

وقد اتهم الرئيس الأمريكي السابق (ترامب) غير مرة نظيره السابق (أوباما)، و(هيلاري كلينتون) بصناعة الغلاة في سوريا والعراق، عبر تسهيل استحواذهم على مساحات شاسعة ومعدات عسكرية، وتمكينهم من النفط للإنفاق على مشروعاتهم في بناء دولة^(١)!

وقد أدانت محكمة النقض الفرنسية في ٧ سبتمبر ٢٠٢١م شركة (لافارج) الفرنسية بتهمة التواطؤ مع تنظيم (داعش)، حيث تواجه الشركة اتهامًا بدفعها (١٣ مليون يورو) لجماعات مسلمة في عامي ٢٠١٣، ٢٠١٤م.

والاستراتيجية العليا للحرب على الإسلام تبدأ من حرب الفكرة المحورية في الإسلام، وهي: الإيمان، والتوحيد.

والفكرة الصحيحة التي برهنت عليها الدلائل، وتكاثرت على إثباتها الحقائق والوقائع -على حدٍّ سواء- هي التي أصبحت عقيدةً تستقر في الوجدان، وتسري في الدماء، وتترجم إلى أقوالٍ وأفعالٍ، ويقدم أصحابها أرواحهم فداءً لها!

فهي العقيدة المنتصرة بنفسها، الآخذة بعقول وقلوب أبنائها، والتي ينظرون إلى الوجود والخلق والأشياء من خلالها!

وعقيدة التوحيد تضادُّ عقيدة التثليث وتآليه البشر؛ لأنها حربٌ على الشرك في كل صوره وتجلياته! وهي الحق المطلق في هذه الحياة!

لذا فإنه لما سطعت شمس التوحيد متمثلةً في جيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بددت سُحْبَ الشرك والخرافة والأديان المحرفة في المعمورة بأسرها آنذاك.

(١) موقع أخبار BBC العربي، في ١١/٨/٢٠١٦م.

ووصل الإسلام إلى ما وصل إليه الليل والنهار، وملكّت الأمة المشارق والمغارب، حتى إذا كان الضعف من أهل الإسلام أنفسهم، دالت دولتهم، وزالت خلافتهم، وصاروا نهباً عسكرياً وفكرياً لكل منتهب!

ومع الحرب التقليدية العسكرية، شنت الحرب الفكرية عبر طمس الهوية الإسلامية للبلاد المحتلة، فلم يُجد ذلك شيئاً، فاستعملت أسلحة العلمانية من الماركسية، والليبرالية، وغيرها، فكانت النتيجة قريبة من سابقتها، وإن وجدوا تلك الأفكار من الضلال أذنًا مُصغيةً، لكنها قلة نادرة، لا تشوش على عموم قاعدة الأمة دينها، ولا تحرفها عن صحيح انتسابها إلى مفاهيمها.

ومن هنا جاء التعديل الاستراتيجي في حرب الأفكار داخل الإسلام ذاته، وبأفكار بعض منتسبيه، لا بإنشاء فكرة جديدة، أو بإدخال فكرة أجنبية، وإنما باستثمار ما هو منسوب إلى الأمة من أفكار ضالة مع إجراء ما يلزم من تعديل أو تغيير!

ولا يقتصر الأمر في هذه الاستراتيجية على تغيير وتبديل وتعديل الأفكار، وإنما يمتد إلى إنشاء واقع عملي تقوم عليه تلك الأفكار، ويقوم عليها!

وهذا القدر يسلم إلى الاستراتيجيات الفرعية، وللتطبيق عليها عبر أمثلة مهمة، غير أنه قبل مغادرة هذه النقطة لا بد من تمثيل لبعض الكيد المنظم حول فكرة التوحيد والإيمان، وكيف يمكن العبث بأصل الأصول!

وذلك أنه تقوم محاولة مناقضة التوحيد، والعبث بأصل الدين على اعتماد مناح كلامية وفلسفية مناقضة للسنة، ومضادة لفكرة التوحيد، ولو من بعض جوانبها أو جوانبه.

ثم تجري محاولة لتطويع النصوص الشرعية، وَلِيَّ أعناق المعاني الإيمانية؛
ليحدث التوافق مع الفكرة الإلحادية!

ثم يساق الكلام، وَيُسَوَّقُ الفهم، ويؤخذ بزمام الأفهام على لسان بعض مَنْ
يُنْظَرُ إليه بعين الاحترام، فإذا بالتوحيد تَفَلُّسُف، وإذا بالإيمان تَمَنُّطُق، وإذا
بالمؤمن تَرَنْدَق، عيادًا بالله!

على نحو قول الهروي رَحِمَهُ اللهُ: «ينظر الناظر الفَهْمُ في جذرها، فيرى مُخَّ
الفلسفة يُكْسَى لحاء السُّنَّة!»^(١).

أو على نحو ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «يُعَبِّرُونَ بالعبارات
الإسلامية القرآنية عن الإلحادات الفلسفية واليونانية!»^(٢).

وهذا فُخٌّ من أفخاخ هؤلاء قديمًا وحديثًا: «يموّهون بالتعبير على المعاني
الفلسفية بالعبارات الإسلامية»^(٣).

وهذا يُنْشِئُ في الإسلام اتجاهًا عَبَّرَ عنه الدكتور محمد محمد حسين رَحِمَهُ اللهُ
بقوله: «يدعو إلى إسلامية متطورة يُفَسَّرُ فيها الإسلام تفسيرًا يطابق الحضارة
الغربية، ويبرّر أنماطها وتقاليدها»^(٤).

(١) ذم الكلام، للهروي (٥/ ١٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٩٧).

(٣) جامع المسائل، لابن تيمية (٦/ ١٣٩).

(٤) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (١/ ٦).

ثم إن الأمر ينتهي إلى شيخ الإسلام في التعبير الجامع عن هذه المحاولة بقوله: «وهذا شأن كلِّ مَنْ أراد أن يُظهر خلاف ما عليه أُمَّة من الأمم من الحقِّ، وإنَّما يأتيهم بالأسهل الأقرب إلى موافقتهم؛ فإن شياطين الإنس لا يأتون ابتداءً ينقضون الأصول العظيمة الظاهرة؛ فإنهم لا يتمكّنون... والغرض -ههنا- التنبية على أن دعاة الباطل المخالفين لما جاءت به الرسل يتدرّجون من الأسهل الأقرب إلى موافقة الناس إلى أن يتهوا إلى هدم الدين»^(١).

وههنا مثال فكري مفهومي مصطلحي:

إن مصطلحات: (الإسلام)، و(الإيمان)، و(الدين)، و(التوحيد)، كلها تدل على عبادة الله وحده عند المسلمين، وكل مَنْ لم يأتِ بالتوحيد والشهادتين، فهو كافر عند المسلمين بالإجماع.

وهذا من أوضح المعاني وأصرحها في القرآن والسُّنة، وكلام العلماء، بل من إجماعهم المعتبر.

فلا يُسوّى بين مسلم ومشرِك، أو بين مسلم ويهودي أو نصراني في الإيمان، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، والفصل بينهم متحقق في الدنيا والآخرة!

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

وفي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنَ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ،

(١) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٥١١-٥١٥).

ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَتْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(١).

وظل الأمر مقارباً على هذا النحو حتى جاء العبث الفكري داخلياً، وذلك بالقرن الرابع عشر الهجري، وهو ما سوف يستثمره الوافد الخارجي الأجنبي عملياً.

فهذا الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «وأما لفظ: (الكفر)، فيُطلق -في عَرَفِ كُتَابِ اليوم- على الملاحدة، كما أُلْمِعْنَا إليه في عرض كلامنا آنفاً، فمهما أطلقنا لقب (الكافر)، أو اسم (الكفر) في كلامنا، فنريد به ما ذكرنا، ولا نطلقه على المخالفين لنا في الدين من أصحاب الملل الأخرى؛ لأنهم ليسوا كفاراً بهذا المعنى، بل نقول بعدم جواز إطلاقه عليهم شرعاً؛ لأنه صار في هذه الأيام من أقبح الشتائم، وأجرح سهام الامتihan، وذلك مما تحظره علينا الشريعة باتفاق علماء الإسلام»^(٢).

وعَرَّفَ المراد بالإسلام -في موضع آخر- فقال: «وبذلك تعلم أن المسلم الحقيقي -في حكم القرآن- مَنْ كَانَ خَالِصًا مِنْ شَوَائِبِ الشُّرْكَ بِالرَّحْمَنِ، مُخْلِصًا فِي أَعْمَالِهِ مَعَ الْإِيمَانِ، مِنْ أَيِّ مِلَّةٍ كَانَ، وَفِي أَيِّ زَمَانٍ وَجَدَ وَمَكَانٍ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]...».

ثم قال: «نحن -المسلمين- نعتقد أن دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي بَيْنَا مَعْنَاهُ آنفاً»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

(٢) مجلة المنار (١٧/١)، ١٨.

(٣) تفسير المنار (٣/٢٥٩).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُرَيْتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] قال: «وعلم مما تقدّم: أن المراد بالإسلام معناه الذي شرحناه، فمن قام به هذا المعنى، فهو المسلم في عرف القرآن، وليس المراد به اسماً في حكم الجامد، يطلق على أمة مخصوصة حتى يكون كل من يؤكّد فيها، أو يقبل لقبها مسلماً، ذلك الإسلام الذي نطق به القرآن، ويكون من الذين تنالهم دعوة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ»^(١).

ونقل السيد رضا رَحِمَهُ اللهُ في موقع آخر عن شيخه الأستاذ محمد عبده بعد أن قرّر أن الإسلام ما ذكره أعلاه: وأمّا في عُرْفنا اليوم فيُطلق على طوائف من الناس لهم مميزات دينية وعادية، تُميّزهم عن سائر طوائف الناس الذين يُلقَّبون بألقاب دينية أخرى - يقصد: اليهود والنصارى - فقال: «قال الأستاذ الإمام بعد تقريره هذا المعنى: وبه يظهر خطأ من خصّص الرغبة عن ملّة إبراهيم بالميل إلى اليهودية أو النصرانية»^(٢).

كما نجد الشيخ محمد عبده يُفسّر الإيمان بقوله: «إنَّ الإيمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر، بلا قيد في ذلك إلا احترام ما جاء على السنة الرسل»^(٣)، فإن سألت عن الإيمان بنبيّنا محمد ﷺ، كان جوابه: «لا إشكال في عدم اشتراط الإيمان بالنبي ﷺ، وكفي احترام ما جاء على لسانه»^(٤).

(١) تفسير المنار (١/ ٤٧١).

(٢) المرجع السابق (١/ ٤٧٨).

(٣) رسالة التوحيد، محمد عبده (ص ١٨٩).

(٤) المرجع السابق (ص ١٨٩).

وهذا يوافق ما قرّره شيخه جمال الدين الأفغاني الذي يقول: «إن الأديان الثلاثة -الموسويّة، والعيسويّة، والمحمديّة- على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، وإذا نقص في الواحد شيءٌ من أوامر الخير المطلق، استكملته الثانية!»^(١).

ولا شك أن هذا إنما هو بسبب انتماء الأفغاني للماسونيّة حينذاك؛ فإن رئيس المحفل الشرقي الأكبر العالمي وهو محمد رشاد فياض يقول: «الميمات الثلاثة - في الموسويّة والمسيحيّة والمحمديّة- يجتمعون في ميمٍ واحدٍ، هو ميم الماسونية؛ لأن الماسونية عقيدة العقائد، وفلسفة الفلسفات، إنها تجمع وتوحد المتفرقات والمتشّتات، وإن ما أورثه الآباء الصالحون للأبناء هو مبادئ الحرية، والمساواة، والإخاء»^(٢).

ويقول الدكتور عبد العزيز كامل: «ونحن -في منطقة الشرق الأوسط- نؤمن بالتوحيد بطريقةٍ أو بأخرى، وأقولها واضحةً: يستوي في هذا: الإسلام والمسيحية واليهودية، حتى الإيمان بالأقنيم الثلاثة في الفكر المسيحي يختم بإلهٍ واحدٍ، هذه منطقة توحيد، والصور تختلف، وتفسيرها الفلسفي يختلف!»^(٣).

والدكتور محمد عمارة رَحِمَهُ اللهُ يرفض -تحت شعار: (وحدة الدين الإلهي)- تقسيم الناس على الأساس المتخلف إلى مؤمنين وكفار؛ لأنّ ذلك التقسيم قد

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، جمعها: د. محمد عمارة (١/٦٩).

(٢) الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين (ص ١٩٦، ١٩٧)، عن كتاب: النور الأعظم، لمحمد رشاد فياض (ص ١١٢).

(٣) الإسلام والعصر، د. عبد العزيز كامل (ص ١٩٤)، عن كتاب: العصريون معتزلة اليوم، يوسف كمال (ص ١٠٩).

ارتبط بالعصور الوسطى وعهود الظلام^(١)، ويرى أن الفروق بين المسلمين وأهل الكتاب ليست من الخطر بحيث تُخرج الكتائب من إطار الإيمان والتدين بالدين الإلهي^(٢).

يقول د. محمود حمدي زقزوق: «وتبقى هناك مسألة اختلاف الأديان، فعلى الرغم من أن التعاليم الأساسية للأديان السابقة تتفق مع ما أتى به الإسلام، إلا أن هناك فرقاً بينها في الأحكام العملية، والثابت -على أي حال- أن الخير كل الخير في اعتبار الأديان طرقاً مختلفة تهدف إلى هدف واحد، والجميع مدعوون بنص القرآن إلى التسابق في صالح الأعمال، وفي الخيرات كلها: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أما الأمور التي اختلف فيها أصحاب الأديان اختلافاً لا سبيل إلى تسويته، فتتصّر تعاليم القرآن -كما جاء في تكملة الآية المشار إليها- على أن الله سيُنبي هؤلاء وأولئك عندما يرجعون إليه بما كانوا فيه يختلفون ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]»^(٣).

وقد أدّى تذويب أو إلغاء هذه الفوارق إلى نوع من الموالاة والمحبة المنهي عنهما لليهود والنصارى، ومن ثمَّ إلغاء فريضة من فرائض الإسلام؛ بل ذروة سنام الإسلام، وهو الجهاد الذي حوّلوه إلى الدفاع، وعلّلوا كل حركة من حركاته بأنها للدفاع بمعناه الاصطلاحي الحاضر الضيق؛ فلقد ذهب رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن

(١) تيارات اليقظة الإسلامية، د. محمد عمارة (ص ٨٠).

(٢) تجديد الفكر الإسلامي، د. محمد عمارة (ص ٨٢).

(٣) بحوث ودراسات في ضوء القرآن الكريم، د. محمود حمدي زقزوق (ص ١٤٤، ١٤٥).

حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعاً^(١)!

وتظهر صور أثر هذا التحريف للمصطلح القرآني للإيمان والإسلام والدين والكفر في رثاء السيد محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ في جريدته: (المنار) لـ(خريستو غورس جبارة) الذي وصل في الكنيسة الأرثوذكسية إلى رتبة الأرشمندرت بقوله: «كان الفقيد مُوحِّداً، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقرآن ورسالة محمد ﷺ، ويخالف المسلمين في مسألة الصلب!»^(٢).

يؤمن بالقرآن ويعتقد بالصلب! ويؤمن بمحمد ﷺ ولا يتبعه! ويؤمن بالقرآن ولا يمثل أوامره! إن هذا الإيمان المدعى لا حقيقة له، وإنما هو كفرٌ صراح.

ثم يفوض السيّد رشيد رضا أمره في الآخرة إلى العليم الرحيم، إلا أنه يستدرك هذا التفويض، فيقول: «وأنا أعتقد أنه مؤمنٌ ناجٍ عند الله إذا كان قد مات على ما عرفته منه، وهو في مسألة الصلب متأوّلٌ معذور!»^(٣).

كما نراه ينافح عن (شبلي شميل) النصراني اللبناني الذي كان يجاهر بكفره على صفحات الجرائد، وفي كتبه المنشورة على الملأ، وفي رسائله الخاصة

(١) الوحي المحمدي، رشيد رضا (ص ٢٧٢).

(٢) ينظر: مناقشة هذه الفكرة والرد عليها في كتاب: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد بن عبد الرحمن الرومي (ص ١٤٠ - ١٤٢).

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام، محمد رشيد رضا (١/ ٨٢٧، ٨٢٨).

(٤) المرجع السابق (١/ ٨٢٨).

للشيخ رشيد، وناصح عن كل الإخوان الماسون الذين رثاهم في (مناره)، أو عدد مناقبهم، وقد زادوا عن مائة شخصية، ومنهم: البابا لاون الثاني، والقس تيلر^(١).

وعدَّ الشيخ رشيد رضا مصطفى كمال أتاتورك من المصلحين، وتبعه تلميذه عبد المتعال الصعيدي في كتابه: (المجددون في الإسلام)... إلى غير ذلك من الأمثلة^(٢).

وقبل الانتقال إلى موضوع آخر، أورد هنا عدة آيات من عشرات الآيات التي تكفر اليهود والنصارى وغيرهم ممن لا يؤمن بالإسلام، أو القرآن، أو النبي ﷺ إذا بلغته الحجة التي يكفر تاركها:

- قال الله تعالى مخاطبًا اليهود: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارْهَبُونِ ۚ﴾ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآبَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ۚ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤١].

- وقال تعالى عن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۚ﴾ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِيبٌ ۚ﴾ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۚ﴾ [البقرة: ٨٩-٩١].

(١) الدخيل في التفسير في القرن الرابع عشر، عبد الرحيم فارس أبو علي (١/١٠٧).

(٢) الدخيل في التفسير في القرن الرابع عشر، عبد الرحيم فارس أبو علي (١/١٠٨).

- وقال تعالى عن القرآن: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

- وقال تعالى عن القرآن: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

- وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

فمن هؤلاء الذين تتكلم عنهم الآية؟ أليسوا اليهود من بني النضير؟

- وقال تعالى واصفاً من لم يؤمن من اليهود والنصارى بالكفر: ﴿يَتَأْهَلْ
الْكُتْبِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْهَلْ الْكُتْبِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)
قُلْ يَتَأْهَلْ الْكُتْبِ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبَعُونَهَا عَوْجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا
اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ يَتَأْيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكُتْبَ
يُرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩٨-١٠٠].

ولا يخفى أن السيد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ قد مرَّ بأطوار ثلاثة، آخرها هو أحدها
وأبعدها عن تلك المؤاخذات والملحوظات، ومثل السيد رشيد: الدكتور محمد
عمارة رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد تقلَّب في عدة أطوار، آخرها أمثلها، فرحمهما الله، وتجاوز عنهما.
غير أن التيار الإصلاحى المتدثر بالعقلانية الذي أنشأه الأفغانى، وبقي يؤثر في
الأمّة، وفي بعض الحركات الإسلامية إلى اليوم - قد فتح باباً لتلك الانحرافات
الخطيرة!

ولا شك أن أخطر ما في هذا الباب اليوم: بناء الصهيونية والصليبية العالمية
على تجميع فكرة الإيمان ابتداءً دين جديد اسمه: (الإبراهيمية)! يجمع المؤمنين -
بزعمهم - من اليهود والنصارى والمسلمين؛ ليحقق من الأهداف السياسية ما لم
يتحقق عبر الحروب العسكرية والسياسية على حدٍّ سواء!

ومن أخطر تلك المآلات: تبديل دين الإسلام، وفتنة المسلمين عن دينهم
الحق، وتمكين الشهوات والشبهات من مجتمعات المسلمين، وانحلال رابطة

الأخوة الإيمانية بين أهل الإسلام، وإحلال روابط جاهلية تفضي إلى إبطال جهاد المحتلّين بزعم أنهم إخوة في الدين الجديد! وهذا هو التنازل عن الأرض والعرض والمقدسات، وتمير مشاريع صفقة القرن بجوار ضلالة القرن (الإبراهيمية)، وأخيرًا إضعاف الدولة الحديثة، وإثبات فشلها وعجزها، وضعف إنجازاتها الاقتصادية، وتخلفها عن ركب التنمية؛ ليتمكّن المغتصبون من السيطرة العالمية على شعوب الأرض كما نصّت بروتوكولاتهم^(١)!



(١) يراجع: الإبراهيمية ضلالة القرن، للمؤلف، دار اليسر، ط ١، ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ

الاستراتيجيات البديلة

بعد فشل خيار القوة العسكرية

بعد فشل خيار القوة العسكرية، وفشل الحملات العسكرية وما يتبعها من فرض مشاريع الهيمنة الغربية بشكلٍ مباشرٍ، فقد اعتمدت استراتيجيات خادمة للاستراتيجية العليا هي بمثابة تفسير وشرح وبيان لتلك الاستراتيجية التي تقوم على إحداث التغيير داخل الإسلام نفسه!

وقد اعتمدت تلك الاستراتيجية لنحو عشر سنواتٍ، ثم تخلَّل الربيع العربي في السنوات الأخيرة، وهو ما أدَّى إلى انقطاع واضطرابٍ في مسيرة التبديل والتعديل الفكري؛ ليعود الأمر إلى نصابه مجددًا بعد انقضاء الربيع العربي، أو القضاء عليه!

مرتكزات الاستراتيجية البديلة:

أولاً: حرب عقيدة التوحيد بالإلحاد:

وذلك بالطعن المباشر في إثبات وجود الله تعالى، ثم بالنَّيل من القرآن، وثبوتة، وقدسيته، وأحكامه، ثم بالتعرُّض لشخص نبينا ﷺ بالبهتان، ثم انتقاص السُّنة، وهدم مُحكماتها، ثم بالإرجاف حول مسائل الإجماع القطعي في الشريعة فيما يتعلَّق بالأحكام العملية؛ كحرمة الربا والزنا وشرب الخمر، وغيرها.

ثمَّ بهدم منزلة الصحابة والتابعين، ثم بإسقاط قيمة الأئمة الأربعة الفقهاء، ونبزهم بأشنع الاتهامات، والهجوم على (الصحيحين)، وصاحبيهما بالكذب والافتراء، والاستعانة على ذلك كله بما كتبه المستشرقون والملحدون والمنحرفون في كل دينٍ وملةٍ كُفريّة، بل والاستعانة بما كتبه مسلمون في الظاهر، زنادقة ملاحدة في الباطن! وبثَّ ذلك الإفك المفترى جماهيرياً!

ومن أراد على ذلك برهاناً، فليتابع حلقات مُصوَّرة لعَدنان إبراهيم، وإسلام البحيري، ومحمد نصر، ومصطفى راشد، ومحمد شحرور، وغيرهم! فضلاً عن كتابات كثيرة في هذا الصدد، ثم ليتابع حلقات تلفزيونية مع ملاحدة يُحترمون، وزنادقة يُقدِّمون، ومقولات باطلة تبعث، وانحرافات متهافئة تحيا من جديد!

ثانياً: حرب عقيدة أهل السنة وأصولهم بعقائد أهل البدع وأصولهم:

وهذا يبدأ من دعم عقائد الرافضة الغلاة، ويمتدُّ إلى الاتجاهات الاعتزالية العقلانية، والمدرسة التنويرية الإصلاحية الحديثة، وينتهي عند الخلافات الكلامية الأشعرية والماتريدية مع السلفية!

إحياءً لذلك كله، وخلقاً للحابل بالنابل، وانتقاءً للمداخل البدعية في القضايا الأصولية وتبنيها، كما سلف مثال الحديث عن الإسلام والإيمان والتوحيد، وجرى عن عمدٍ ضربُ (المعتدل) الفرقى الكلامي بالمتطرف المتشدد السُّني السلفي الوهابي، ولم يختصَّ هذا بقطرٍ دون آخر، بل كان عاماً إلا ما قلَّ ونذر!

وقد وقع في إطار هذه الحرب الفكرية التي يراد لها أن تستمر وتستمر، ولا يراد لأوارها أن يهدأ - ما يلي:

١ - أُصدِرَت إصدارات تقوم على السب والقذف والبهتان، وتنال من أهل السنة وعقيدتهم.

- ٢- أقيمت المؤتمرات والندوات، وألقيت المحاضرات، وأطلقت الروابط العالمية للاتجاهات الكلامية.
- ٣- جرى التضييق على المناهج والمناشط والأعمال المنسوبة للدعوات الإسلامية، وأهل السنة بالجملة.
- ٤- استُعملت الوسائل الإعلامية في تلك المواجهات والاعتيالات المعنوية على أوسع نطاقٍ.

ثالثاً: حرب طوائف وجماعات الدعوة الإسلامية بالطرقية الغالية:

وهي حرب منهجية ومسلكية، قال عنها (دانيال بايس) عام ٢٠٠٣م: «إن الغرب يسعى إلى مصالحة التصوف الإسلامي ودعمه؛ لكي يستطيع ملء الساحة الدينية والسياسية وفق ضوابط فصل الدين عن الحياة، وإقصائه نهائياً عن قضايا السياسة والاقتصاد، وبالطريقة نفسها التي استُخدمت في تهميش المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة»^(١).

وبعد هذا الإعلان باثني عشر يوماً، وفي ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م استضاف مركز (نيكسون) مؤتمر برنامج الأمن الدولي في واشنطن؛ لاستكشاف مدى الدور الصوفي في تحقيق أهداف السياسة الخارجية الأمريكية^(٢)!

وكان هذا التوجه وفقاً لتوصيات: (برنارد لويس) اليهودي الأمريكي رأس دهاقنة الحرب الفكرية!

(١) جريدة (الزمان) العدد (١٦٣٣)، في ١٢ / ١٠ / ٢٠٠٣م.

(٢) فهم الصوفية واستشراف أثرها في السياسة الأمريكية، مركز نيكسون ٢٠٠٤م، ترجمة: د. مازن مطبقاني.

وعبر مسيرة السنوات الأخيرة انطلق نشاط صوفي عالمي محموم يجوب العالم شرقاً وغرباً للدعم والتوجيه والتبشير بالطرق الصوفية، ومسالكتها الفكرية المنهجية، وكان من مظاهر هذا النشاط ما يلي:

- ١- تأسست عدة اتحادات صوفية قُطرية ودولية.
 - ٢- عُقدت المؤتمرات والندوات التي تُروِّج لفكر ابن عربي، وجلال الدين الرومي، وتُحدِّث عن مزايا الطرق والزوايا الصوفية، وافتُتحت أكاديميات للتصوف، ومعاهد علمية لا تُدرِّس ولا يُدرس بها إلا المنتسبون إلى الصوفية الطرقية.
 - ٣- سُلِّمَت المناصب الدينية القيادية للصوفية الغالية في مصر والمغرب والأردن وسوريا، وغيرها، وقد جرى دعم سياسي رسمي لهذه التوجهات على حساب اضطهاد الحركة الإسلامية المنتسبة للإسلام السُّني المقاوم بمختلف مدارسها.
 - ٤- أُصدرت مؤلفات تهاجم الحركات الإسلامية، وتعتبرها بمثابة الخوارج والفرق البدعية، بدءاً من الإخوان، وانتهاءً بالسلفيين!
- وأما سبب وقوع الاختيار على الطرق الغالية لتبنيها بدلاً عن جماعات الدعوة الإسلامية المعاصرة، فيجيب عن ذلك الغرب نفسه:
- تقول (فارينا عَلم) الباحثة الإنجليزية: «من الممكن أن تصبح الصوفية اليوم -بتكيزها على القيم الإسلامية المشتركة، ووضع الأهداف السامية نصب عينيهـا- بمثابة قوةٍ مضادةٍ للإسلام السياسي المجاهد»^(١).

(١) مقال: المبادئ الخمسة لمستقبل الإسلام، فارينا علم، موقع: الديموقراطية المفتوحة (Open Democracy).

كما يذكر الاستعمار بإعجاب وإكبار مواقف بعض الصوفية الغلاة منه في الهند ومصر والجزائر والسودان وغيرها!

ويكفي قول الصادق المهدي وهو من أحفاد المهدي صاحب الحركة المهدية في السودان: «الإسلام الصوفي منذ نشأته اتَّسم بإسقاط واجب الجهاد، والتخلّي عن الإيجابية الاجتماعية، فكان أشبه بحركة انطواء؛ ممّا سهّل على جماعته التعايش مع نظم سياسية فرضت سلطاناً على المجتمع»^(١).

رابعاً: حرب دعاة السلفية ببعض غلاة المنتسبين إليها:

في تقريرٍ لمركز مكافحة الإرهاب بالأكاديمية العسكرية في (ويست بوينت) بأمريكا نشر عام ٢٠٠٦م، جاء النص الآتي: «... فالولايات المتحدة يمكن أن تدعم بتعقل اتجاهات سلفية سائدة، مثل: مجموعة المدخلي، والتي تؤثر في رفع الدعم عن الجهاديين، ولا تدعو إلى العنف، وذلك من خلال دعم المؤلفات، والمحاضرات، والمدارس الجديدة، وهذا سيكون له تأثير على المدى القصير، وهذا سيُعمّق تجريد العقيدة السلفية من الإيحاء الذي تهدي به الحركة الجهادية كثيراً»^(٢).

فتأسس توجّه سلفي بدعم رسمي ليقوم بمثابة مسجد الضرار في المحيط السلفي؛ إذ يُعلن هذا التيار عن سلفيّته -أولاً- ببعض الشعارات والمظاهر التي

(١) العرش والمحراب (ص ٣٩٨).

(٢) سرقة تنظيم القاعدة، جاريت براكمان (ص ٢٠).



تجتذب بعض الشباب والأغرار، ثم لا يلبث أن ينقضَّ على كل مَنْ هو سلفي تجريحاً وتبديعاً، وإسقاطاً وتشويهاً، وعلى المعاني الشرعية تحريفاً وتبديلاً! وهكذا يُضرب التوجُّه السلفي من داخله ببعض من يزايد سلفياً على الصادقين، ويعمل لحساب أعداء الدين!

ولا يمنع هذا -بالطبع- من وجود بعض المخلصين الصادقين في هذا التوجُّه، وذلك لقلَّة العلم أحياناً، ولقلَّة الوعي بالحقائق والوقائع أيضاً، فليس كل منتسبٍ لهذا التوجه يعمل للهدم متسترّاً، أو يرتبط بالانحراف المنهجي قاصداً.

ولا يمنع هذا من وجود غلاة في بابٍ أو أكثر من أبواب العلم أو العمل ممن يستظلون بمظلة السلف الواسعة، وأمثال هؤلاء ينالون قسطاً من الدعم بما يخدم أهداف واستراتيجيات اختطاف الإسلام نحو الغلو!



المَبْحَثُ الخَامِسُ

القوى الفاعلة في اختطاف الدعوة الإسلامية

نحو الغلو والعنف

لقد تعددت تلك القوى الضاغطة في اتجاه حَرْفِ الحركات والدعوات الإسلامية نحو الغلو، ومنها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي، وفيما يأتي بيانٌ لتلك القوى ذات التأثير السلبي:

أولاً: فرق وجماعات الغلو العقدي:

الغلو العقدي هو: مجاوزة حدٍّ ما شرعه الله ورسوله باعتقاد باطل قد يترتب عليه قول وفعل ما لا يحلُّ، وقد يوجد من الغلو العقدي ما يرتبط به عنف وقتال، وهذا النوع من الغلو وُجِدَ من قديم، وقد قاتل الصحابة الخوارج، واحتسب العلماء على فرقتهم وطوائفهم الذين غلوا في حكم مرتكب الكبيرة، فكفروا عصاة المسلمين، ثم تبرأوا منهم كما يتبرأون من الكفار الأصليين، ثم استباحوا دماء مَنْ اعتقدوهم كفاراً من أهل الإسلام، فقاتلوهم وقتلوهم، وتركوا أهل الأوثان!

وقد يوجد غلو عقدي لا عنف فيه؛ كغلو بعض الصوفية في قدر النبي ﷺ، حتى أفضى بهم إلى اعتقاد ما لا يحلُّ اعتقاده فيه ﷺ، كاعتقاد أن له تصرفاً في

الكون، أو أنه يملك مغفرة الذنب، أو كشف الضرر بعد موته ﷺ، ونحو ذلك.

وأول احتساب وقع على غلو الخوارج: كان احتسابه ﷺ على جدّهم ذي الخويصرة التميمي الذي قال ﷺ له: «وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ! قَدْ خَبَتْ وَخَسِرَتْ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ»^(١).

ثم احتسب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على صبيغ بن عسل التميمي، وجلّده حين جعل يضرب القرآن بعضه ببعض^(٢)، وقطع الشجرة التي بُويع تحتها النبي ﷺ لَمَّا رَأَى نَاسًا يَقْصِدُونَهَا، فخاف عليهم الفتنة^(٣).

واحتسب عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قتل ابن سبأ لَمَّا أظهر انتقاص أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغلا في عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودعا بالسيف ليقتله، فشفع له ناس، فنفاه^(٤).

واحتسب -أيضاً- على الخوارج بعد ذلك بقتالهم.

كما احتسب الإمام أحمد على المعتزلة في قولهم بنفي الصفات، وخَلَقِ القرآن، واحتسب العلماء والأمرأء من بعدُ على الزنادقة، واستمر الحال من ذلك الزمان في الاحتساب على صور الغلو العقدي وطوائفه، حتى إذا انتهينا إلى العصر الحديث - ولأسبابٍ متعددةٍ - ظهرت جماعات الغلو العقدي مجدداً بأسماء وألقاب شتى، فمن ذلك: جماعة التكفير والهجرة، والتوقّف والتبيين، وما انشق عنهما من

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١٤٦)، والآجري في الشريعة (١٥٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧٦٢٧)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص ١٠٢).

(٤) الفرق بين الفرق، للبغدادي (ص ٢٢٥).

مجموعاتٍ عُرِفَتْ بِغُلُوِّهَا فِي الْحُكْمِ بِالتَّكْفِيرِ عَلَى عَمُومِ الْحَاكِمِ وَالْمُحْكُومِ، وَتَكْفِيرِ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى اعْتِزَالِ الْمَجْتَمَعَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالحَيَاةِ فِي الصَّحْرَاءِ خَارِجَ الْمَدَنِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ انْحِرَافَاتٍ تَمْتَدُّ إِلَى الْأَخْلَاقِ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ إِلَى اسْتِبَاحَةِ دِمَاءٍ مُخَالَفِيهَا، وَالْمُنَشَقِّينَ عَنْهَا، وَدِمَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَالْعَهْدِ، وَمِنْذَ ذَلِكَ الْحَيْنِ وَالْمُوَاجَهَةُ الْفِكْرِيَّةُ وَالْأَمْنِيَّةُ عَلَى أَشَدِّهَا مَعَ هَذِهِ التَّوَجُّهَاتِ^(١).

ووجود تلك الجماعات ليس قاصراً على بلدٍ دون غيرها، فكما وُجِدَتْ فِي مِصْرَ، وَوُجِدَتْ فِي الْيَمَنِ وَالْأُرْدُنَ وَالْجَزَائِرَ وَتُونِسَ وَالْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ. وَقَدْ رُصِدَ نَشَاطٌ مُلْحُوظٌ لَهَا عَقِبَ ثَوَرَاتِ الرَّبِيعِ الْعَرَبِيِّ، كَمَا فِي الشَّامِ، وَتُونِسَ، وَلِيبِيَا.

وغيبي عن البيان أن هذه الجماعات إذا رفعت شعار الجهاد، فإنها تنتقل من غُلُوٍّ فِي بَابِ الْإِعْتِقَادِ إِلَى غُلُوٍّ فِي بَابِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ، وَقَدْ وَقَعَ هَذَا بِصُورَةٍ غَيْرِ مُسَبَّوْقَةٍ -وَلِلْأَسَفِ- فِي الْعِرَاقِ وَسُورِيَا وَغَيْرَهُمَا، عَلَى نَحْوِ مَا سَيَتَضَحُّ أَكْثَرُ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الْجَانِبِ الْجِهَادِيِّ وَالْعَسْكَرِيِّ.

ثانياً: الغلو في جانب ممارسة الجهاد:

الجهاد ذروة سنام الإسلام ولا شكَّ، بَيِّدَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَمَلَ سِلَاحًا، تَأَجَّجَتْ فِي جَوَانِحِهِ مِشَاعِرُ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ، فَمَتَى لَمْ يَوْجَدْ الْعِلْمُ الْهَادِي وَالانضباطُ التَّربُويُّ، فَإِنَّ أخطاءاً مُتَعَدِّدةً قَدْ تَقَعُ بِسَبَبِ سُوءِ اسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ، وَالْإِفْرَاطِ فِي جَانِبِهَا.

(١) من المراجع المهمة في هذا الصدد: الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو، لمحمد سرور زين العابدين، الغلو في الدين، لعبد الرحمن اللويحق، الاحتساب على الغلو المعاصر، لمحمد يسري.

وقديماً وقعت حوادث فردية في الجهاد احتسب فيها النبي ﷺ على مَنْ أخطأ؛ كحادثة قتل أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رجلاً أثناء الجهاد بعد أن قال: لا إله إلا الله^(١)، وفدى النبي ﷺ بعض القتلى بسبب أخطاء وقعت أثناء الجهاد^(٢).

وهذه النوادر تؤكد قاعدة: العدل والانضباط التي شهد بها الأعداء!

يقول (أندرو باترسون): «إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء، بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام، لا العنف»^(٣).

فإذا انتقلنا إلى العصر الحاضر، والجهاد يمارس في ظلّ نكول دول وحكومات عن فريضته، واضطرار فئات من الشباب أن يمارسوا الدفع عن أنفسهم وبلادهم في البوسنة والهرسك ضدّ التطهير العرقي، وضدّ الاحتلال الروسي، ثم الأمريكي في أفغانستان، وضد الروس في الشيشان، والأمريكان في العراق، وغيرها.

ونشأت جماعات جهادية لدفع المستعمر، وردّ عادية اليهود في فلسطين، وذلك في ظل غياب الدولة من جهة، ووجود فجوة بين العلماء والشباب المجاهد من جهة أخرى، واتساع الشقة بين التأصيل النظري والممارسة الواقعية للجهاد على الأرض.

فإذا انضمّ إلى ساحة الجهاد مَنْ عنده نوعُ غلو عقدي، أو تسرّع في التكفير وإجراء الأحكام؛ فإن ذلك مدعاة للولوغ في دماء معصومة بغير برهان.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٩)، وأصله عند البخاري (٣٢٩٠).

(٣) لا سكوت بعد اليوم، بول فندلي (ص ٩١).

وتحت كل هذه الضغوط جاء الجهاد ضد المستعمر الغربي، ثم جاء الجهاد ضد الظلم والاستعباد الذي حاوله الروس في بلاد الأفغان، وفي ظلّ تقاعس حكومات نشطت حركات، وتقدّم لقيادتها شباب قبل نحو أربعة عقود، وتكوّنت بينهم ثقافة جهادية تختص بهم، فيها ما هو مقبول قطعاً، وفيها ما هو مردود قطعاً، وفيها ما هو من موارد النظر الشرعي، والخلاف الاجتهادي.

ودوّنت مؤلفات أثناء هذا الغمار عن شرعية الجهاد، والإعداد له، وقاتل الطائفة الممتنعة عن تحكيم الشريعة، وحكم استهداف الكفار المدنيين، والموقف من جيوش البلاد التي لا تحكم بالشريعة، وغيرها مما هو منشور الآن بشكل إلكتروني، وعلى نطاق واسع.

وكل تلك الكتب ترسم خطوط الفكر والممارسة لهذا العمل، والتي ربما عُنيَت بالفعل فقط دون دراسة الآثار والعواقب، أو تنمية روح الاستشهاد، وثقافة الموت في سبيل الله بدلاً من ثقافة الحياة في سبيل الله، وإخراج مشاريع للشهادة أكثر من مشاريع للنصر!

ولأسباب عديدة وقعت فجوة بين العلماء والمجاهدين، واتسعت الشقة بين التأصيل النظري الشرعي للجهاد، وتحقيق مناطه، وتوقيت ممارسته، وكفاية إمكانياته، ودقة حساباته، وسلامة مآلاته، وحال الأمة وأولوياتها، وتقدير المصالح والمفاسد، والموازنة بينهما، فكانت النتيجة: تصدّر غير المتأهلين في ظلّ سطحية في فهم النصوص، ونقص في إدراك مناسبات الأحكام ومقاصد الشريعة على حدّ سواء، مع اعتبارها من المصالح المظنونة فحسب!

ومما ينبغي تقريره على أية حال: أن هذه الجماعات المقاتلة قد تمكّنت من

استقطاب أعداد كبيرة من الشباب من اتجاهات شتى، فمنهم من هو منتسب لجماعات عقدية غالية يشيع لديها فكر التكفير، وبدع الغلو في الحكم على الناس، ومنهم دون ذلك.

لكن التزاوج والتمازج بين جماعات الغلو العقدي وجماعات الغلو الجهادي يُنتج تركيبة شديدة الخطورة، تجمع بين تكفير المجتمعات، ووجوب جهاد الدول التي لا تحكم بشرع الله، ولتعطيلها للجهاد في هذا العصر أيضًا، وأنه تنطبق على تلك الدول بجيوشها - فردًا فردًا - أحكام الطائفة الممتنعة، مع اعتقادهم أن مفسدة بقاء الكفر أعظم من مفسدة القتل، وربما اعتقدوا التوسع في قتل الأبرياء المعصومين؛ استدلالًا بمسألة التترس، ودعوى جواز قتل الأطفال والنساء في بلاد المسلمين بدعوى تبييت العدو، وأن هذه الممارسات الجهادية التي شابهها الغلو داخلة في جهاد الدفع المتعين.

ويرتبط بذلك أمور تتعلق بقضية الولاء والبراء، والغلو فيها، وكذلك مسألة الغلو في البيعة التي يأخذونها من أفرادهم.

وهذه الإشكالات تعتبر عابرةً لتنظيمات الجهاد كافة، بدءًا من جماعة الجهاد الإسلامي المصرية، ومرورًا بالجماعات المسلحة في ليبيا والجزائر وغيرهما، وانتهاءً بتنظيم القاعدة، وتنظيم الدولة الإسلامية^(١).

(١) من الكتب المهمة في هذا الصدد: الانحرافات المعاصرة في مسائل الجهاد، لراشد الزهراني، سلسلة مراجعات الجماعة الإسلامية المصرية، مبادرة وقف العنف.. رؤية واقعية وضرورة شرعية، الجماعة الإسلامية المصرية.

وبناءً على ما سبق، فإنَّ التنظيمات الجهادية التي ارتبطت بقاعدة فكرية تتبنَّى الغلو قد أثرت في اجتذاب مئات من الشباب نحو الغلو والعنف معاً في العقود الماضية ليلبغ الأمر ذروته في العقد الأخير.

ثالثاً: الأنظمة المستبدة:

لقد بات معلوماً أن أنظمة عربية مستبدة قد اتخذت من تأجيج الغلو؛ بل من صناعته مشجِباً تُعلّق عليه فشلها تارةً، وخيانتها لشعوبها أخرى!

وغدا الحديث مكرراً عن أعمالٍ قيل: إنها إرهابية ارتكبت بأيدي الغلاة لتُشعل فتيل الطائفية، أو لتُوجد ذرائع الخوف والبطش والتنكيل بالجملة، وصار متعارفاً على أن القوانين الاستثنائية هي الأصل في كبرى البلدان العربية؛ نظراً لاستشراء حالةٍ عامةٍ من الغلو العنيف الذي قد يُعبّر عنه بـ(الإرهاب).

وبمراجعة مزاعم كثيرٍ من دول المنطقة في العقود الأخيرة يظهر بجلاءً أن أكبر مستفيدٍ من وقوع حوادث تفجيرات في دور العبادة من كنائس ومساجد ومرافق عامة -مثل: المستشفيات والمدارس وغيرها- هي ذات الجهات التي تسعى لتقييد الحريات، وصناعة الخوف!

إنَّ ما يعبر عنه بـ(أقل الخسائر) لدى تلك الأنظمة يعني التضحية ببعض الأرواح والأموال في سبيل استدامة تلك القوانين الاستثنائية، التي لا يمكن فرضها في الأحوال العادية المستقرة.

على أن صناعة الغلو تنشأ -ولا بدّ- من خلال المواجهة الأمنية لتلك الجماعات بالفعل؛ إذ لا جدال في أن جماعات التكفير والهجرة نشأت أواخر

الستينات بمصر جرّاء العنف الذي مُورِسَ تُجاه جماعة الإخوان المسلمين.

لقد كان شكري مصطفى شاباً في جماعة الإخوان يوم أن اعتُقل، ولا يزيد عمره عن ثلاثة وعشرين عاماً عام ١٩٦٥م، فلما أُخرج عام ١٩٧١م، تمت بيعته أميراً للمؤمنين، وقائداً لجماعة المسلمين -بحدّ زعمهم- ثم بدأ يمارس أنشطته الضالّة، وينشر أفكاره الغالية.

وعليه؛ فإنّ صناعة الغلو وتأجيج جذوته يجري بصورة مباشرة مقصودة أحياناً، وأحياناً أخرى بصورة غير مباشرة جرّاء معالجة غير رشيدة.

وأخيراً، فكما ينتسب الإرهاب إلى جماعاتٍ وميليشياتٍ، فإنه ينتسب - أيضاً- إلى الدول التي قد تمارسه ضد شعبها، وهو مصطلح قديم تحدّث عنه أرسطو حين يستخدمه الطاغية ضد رعاياه!

وقد حدّدت منظمة العفو الدولية أشكال إرهاب الدولة، وهي: الاحتجاز التعسّفي، والمحاكمات غير العادلة، والتعذيب، والقتل السياسي، أو الإعدام خارج نطاق القضاء^(١).

رابعاً: النظام الإيراني:

لا امتراء في أن النظام الإيراني يعتبر أكبر داعمٍ في العقود الماضية لجماعات الجهاد، وتربطه علاقات وثيقة بمختلف التنظيمات، بما في ذلك المعتدلون والغلاة على حدّ سواء.

(1) Gus martin - Understanding Terrorism: Challenges, Perspectives, and Issue: p. 83 - Publisher: Sage Publications, Inc -2006

وصفحة العلاقات الإيرانية بالغلو وتنظيماته مُترعة بالإشكالات، وهذا يرجع لأسباب متعددة، منها: سعي الإيرانيين لتصدير ثورتهم الدموية، وحرصهم على إيجاد توترات كبيرة في المحيط السُّني المجاور لهم، مع وجود قواسم مشتركة بينهم وبين الغلاة في جوانب فكرية أيديولوجية، وجوانب عملية أيضًا، وأخيرًا: فإن جزءًا مهمًا من ثقل هذا النظام إقليميًّا يرتبط بقدرته على التأثير سلبيًّا في الدول السُّنية.

ثم إن هذا النظام يقوم أصلًا على قاعدةٍ من الغلو العقدي في آل البيت، ويحمل -أيضًا- عقيدةً تكفيريةً لأهل السنة بالجملة، كما يحمل مشروعًا للتشيع الديني والسياسي معًا؛ ولذا فإن دفع الغلو في محيطه الإقليمي يعتبر جزءًا من رسالته وأيديولوجيته التي قام عليها.

وهذا التوجه يتفق مع توجهات دولية، ورغبات لدى النظام العالمي -أيضًا- في استهداف دول أهل السنة بالغلو، وصناعة صورته، ولقد نُسبت أعمال كثيرة للحرس الثوري الإيراني وفيلق القدس، وقد صُنِّفت أعمالًا إرهابية على مستوى إقليمي ودولي.

فلقد قدّمت إيران دعمًا لا نهائيًّا لنظام الأسد، وقاتل الإيرانيون -بشكل مباشر- معه ضد الشعب السوري السُّني وثورته، وبشكل سافر شارك حزب الله الشيعي اللبناني المدعوم إيرانيًّا في القتال ضد الثوار بسوريا، ولا يخفى أن قائد فيلق القدس قاسم سليماني هو من طار إلى موسكو ليقنع بوتين بالتدخل العسكري في سوريا بعد فشلهم في وأد الثورة السورية، كما أعلن ذلك حسن نصر الله في لقاء مُصوّر!

ولا يفوت أن يُذكر الدور الإيراني في دعم الغلو الحوثي المسلح باليمن، وما جرى من قتل اليمنيين السُّنة لتستقرّ للحوثيين الأمور باليمن، ولو على أشلاء أهلها!

وقبل هذا وبعده، فإن ما صنعه نظام الملالي من دعمٍ للعنف والإرهاب المُسلَّح في العراق وسوريا ولبنان لا يخفى على متابع، ولا مبالغة في القول بسقوط هذه الدول في قبضة النظام الإيراني اليوم!

وهكذا يبدو النظام الإيراني المُسمَّى بـ(نظام ولاية الفقيه) أحد أهم عناصر القوة الداعمة لاختطاف الإسلام نحو الغلو، وصناعة صورة العنف في المنطقة، وذلك عبر سجلٍّ حافلٍ بدعم كل ما من شأنه تقديم الخدمة للإرهاب والتطرف بشكلٍ ماليٍّ وعسكريٍّ.

خامساً: النظم الغربية (الصليبية، والصهيونية):

إن المتتبع للتاريخ الأوروبي والغربي القديم والمعاصر سوف يقف على نفسية إقصائية عنيفة، تحتكر الحق، وتطوِّعه لمصالحها الذاتية، ولا تمنح وكالةً عنه لأحد كائنًا من كان، فتاريخهم قام على الخصام والصدام، وعلى أيديهم تحوَّلت النصرانية من دينٍ متسامح إلى دينٍ محارب على يد القديس أوغسطين (٤٣٠م)، ودشَّنوا مبكرًا مصطلح: (الحرب العادلة)؛ حيث ساد لديهم اعتقاد بأن مملكة الربِّ لا تقوم في الأرض إلا باستخدام القوة العسكرية لفرض العقيدة الدينية!

وبين كتابي أوغسطين: (العقيدة المسيحية)، (ومدينة الرب)، والواقع المعاصر ستة عشر قرنًا من صراع الحضارات، كلها تشهد بأن العنف والدموية صناعة غربية في الجملة!

وإذا أُسْعِفَت المتابع ذاكرته، فسيقف على سبعين مليونًا من ضحايا الحربين العالميتين، وسيعرف أن عدد السكان الأصليين للأمريكتين قد تقلَّص من

ثمانين مليوناً إلى عشرة ملايين بدخول الضيوف الغربيين إلى هنالك!

إن الأمر كما قال جارودي: «إنَّ الغرب يرفض ويُدين المختلفين، وهو بهذا الرفض للأشكال الإنسانية الأخرى يحمل أسباب انهياره النهائي، ويضع مستقبل الإنسانية في خطر حقيقي»^(١).

وهذه الحقيقة - بل الأزمة - هي ما حَدَّتْ بـ (نعوم تشومسكي) أن يُخرج عدَّة كتب في هذا السياق^(٢).

ولا ينسى الشرق ما فعلته الحملات الصليبية حين دخلت القدس، ولا ما فعلته حملات التفتيش في الأندلس على مدى نحو أربعة قرون.

ولا تنسى ذاكرة التاريخ ما فعله النصارى باليهود، ففي بريطانيا أُخرج اليهود منها سنة (١٢٩٠م)، وبَقُوا محرومين من دخولها لأكثر من ثلاثة قرونٍ ونصف!

ولا يمكن أن ينسى التاريخ حروب الكاثوليك والبروتستانت لقرنين من الزمان ليذهب أربعون بالمائة من سكان وسط أوروبا ضحيةً للحروب الإحدى عشرة التي قُتِلَ فيها نحو عشرة ملايين وفقاً لإحصاء فولتير^(٣).

أمَّا ما يجري اليوم من حربٍ عالميةٍ على الإسلام وأهله، فأمرٌ يحتاج رَصْدُهُ إلى مجلدات، لا مجرد ورقات!

(١) أمريكا طليعة الانحطاط، روجيه جارودي (ص ١٤٢).

(٢) منها: ماذا يريد العم سام، قراصنة وأباطرة الإرهاب الدولي في العالم الحقيقي، الهيمنة أم البقاء، الإرهاب والإرهاب المضاد، وغيرها.

(٣) قصة الحضارة، وول ديورانت (٤/٣)، (٤/٣٦ - ٥٣).

والأمر كما عبّر عنه (بومبيو) وزير خارجية أمريكا السابق في أبريل (٢٠١٩م) بقوله: «الإسلام المتطرف يبقى تهديداً، وسنواصل عملنا ضدّ الأشرار»^(١).

وحين اعترف (ترامب) بسيادة إسرائيل على الجولان، قال بومبيو أيضاً: «إن الرب اختار ترامب لحماية ودعم إسرائيل»^(٢).

وهذه التصريحات تعيد إلى الأذهان ما قاله الأب (أربان الثاني) مفجر الحروب الصليبية في مجمع (كلير مونت) عام ١٠٩٥م، حيث قال: «أيها الجنود المسيحيون، اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الأشرار، اذهبوا واغسلوا أيديكم بدمائهم أولئك المسلمين الكفار»^(٣).

إن العقلية المسكونة بالعدوان على بني الإنسان إذا غدّتها ديانة محرفة تؤجج الرغبة في الدماء؛ فإنها تقف بالبشرية على حافة الفناء، لا سيما إذا غدت مدججةً بسلاحٍ يكفي لإبادة الأرض وساكنيها عدّة مرات^(٤)!

إن الغرب يقف وراء تفاقم الإرهاب في العالم عامّة، وهو أكبر القوى الداعمة له في الشرق.

- يقول المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي: «الواقع أن قيادة الولايات المتحدة

(١) موقع قناة الجزيرة، في ٢٢/٤/٢٠١٩م.

(٢) قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله (ص ٣١).

(٣) الإسلام والغرب، عبد الودود شلبي (ص ١٥).

(٤) يراجع: أمريكا.. الاستعمار الجديد، من الاستيطان الأبيض إلى الهيمنة العالمية، فيكتور كيرنان، منتدى العلاقات الدولية، الدوحة.

الحالية متطرفة في هذا السياق، ولكن الأمريكيين ملتزمون بصراحة ووضوح باستخدام العنف للسيطرة على العالم، وهم يقولون ذلك علناً! ^(١).

فأيُّ إرهاب أكبر من هذا؟!، وأيُّ امتهان لما يُسمَّى بالشرعية الدولية أعنف من هذا؟!!

- ثم يقول تشومسكي: «ويجب أن نعي أن قسمًا كبيرًا من العالم يعتبر نظام حكم واشنطن إرهابيًا، ففي السنوات الأخيرة قامت الولايات المتحدة بأعمالٍ، أو دعمت أعمالاً في كولومبيا، ونيكاراغوا، وبنما، والسودان، وتركيا، وهذه أمثلة قليلة فقط تنطبق عليها التعريفات الأمريكية للإرهاب، وذلك عندما يطبق الأمريكيون المصطلح على الأعداء».

ثم يتابع قائلاً: «في أكثر نشرات المؤسسات الرسمية رزانة (فورين أفيرز) كتب (صموئيل هنتنجتون) يقول: بينما تُندد الولايات المتحدة بانتظام ببلدانٍ متنوعةٍ كدولٍ مارقةٍ؛ فإنها صارت تعتبر -في أعين بلدان كثيرة- الدولة العظمى المارقة، والتهديد الخارجي الأعظم لمجتمعاتها» ^(٢).

وتاريخ الأداء الغربي -والأمريكي خاصة- في نحو قرن ونصفٍ من التآجيج والإذكاء المستمر للعدوان باستعمال القوة العسكرية الغاشمة، ينتهي إلى تأكيد عدوانية تُهدد بقاء العالم في النهاية.

ومن غير شكٍّ، فإنَّ الغلوَّ المنسوب إلى بعض فئاتٍ إسلاميةٍ قد أمكن

(١) القوة والإرهاب، نعوم تشومسكي (ص ٤٨).

(٢) جريدة الحياة، العدد (١٤٤١٥)، السبت ٧/٩/٢٠٠٢ م.

استثماره وإمداده غريباً، ومن ثمّ توظيفه في قتال الفئات الإسلامية على الأرض في العراق وسوريا بدعم الطائرات الغربية، ما أدّى إلى تغلّب التحالف الغربي بمساعدة الغلاة، ثم جرى حصرهم أخيراً في (الباغوز) السورية، ومن ثمّ إعمال القتل والأسر فيهم جميعاً؛ نساءً وأطفالاً ورجالاً.

وهو إرهابٌ تشترك فيه دول الغرب مجتمعةً ومنفردةً عبر تحالفات دولية وبدونها. وهو إرهابٌ ضاربٌ في شِعَاب الماضي والحاضر، ومستكنٌ في النفسية الدموية العنيفة في المستقبل! وهو تهديد للغرب نفسه كما هو تهديد للحياة البشرية برمتها.

والغرب نفسه -وأمریکا في القلب منه- تتعرّض بالفعل لهذا الإرهاب داخليّاً، وما حوادث المذبحة والتفجيرات في مركز أوكلاهوما الفيدرالي التجاري عام (١٩٩٥م) عن الأذهان ببعيدٍ، وقد قُتل فيها (١٦٨) شخصاً، ووُجّهت التهمة فوراً إلى المسلمين، ثم تبيّن الأمر من قريبٍ، فاتّهم فيها (تومني مكافي) الأمريكي المتطرف، ولم يُسمح لأحدٍ وقتها أن يصمّ المسيحية أو اليهودية بتطرفٍ، أو يوجه إليهما نقداً، أما في حال لو كان الفاعل مسلماً، فلا مانع من تدمير بلادٍ بأسرها، وإعلان الحرب على دينها وثرواتها!



المَبْحَثُ السَّادِسُ

أسباب ودوافع قبول الاختطاف

نحو الغلو والعنف

تقدّم قريباً بيان القوى المؤثرة في اختطاف الحركة الإسلامية نحو الغلو والعنف، وفي ثنايا ذلك البيان ظهرت أسباب ودوافع لتلك القوى والفئات المختلفة، وفيما يلي بيانٌ أكثر تركيزاً على تلك الدوافع التي تحمل الفرد -ومن بعده الطائفة- على قبول الاختطاف، والتحوّل نحو التطرف والعنف في فهم الدين، والتعاطي مع التحديات الداخلية والخارجية في واقع الأمة الإسلامية اليوم.

أولاً: أسباب ذاتية^(١):

١- ضعف الانتماء إلى المجتمع:

الشخصية المؤهلة للاختطاف ناحية الغلو تعاني من فقدان الصلة بالمجتمع، وشعور داخلي بالاغتراب داخله، وأنه لا ينتمي إليه في فكره وتديّنه وثقافته وطموحاته، فيُربِّه هذا في الانعزال عنه، وفي التمايز عن أهله، ومن ثمّ يتبنّى توجهات غير سويّة في التعامل معه، والنتيجة: أنه يصبح عاجزاً عن التوافق، زاهداً في المشاركة المجتمعية، وربما يشعر بعدائيّة، أو نقيمة على هذا المجتمع، وقد يتصل

(١) يراجع: الاحتساب على الغلو المعاصر، للمؤلف، دار اليسر، ط ١، ٢٠١٦م.

بذلك أسباب أخرى - كما سيأتي - تدعو للانتقام من المجتمع بمؤسساته وقياداته. ومن درس سيرة بعض الذين نُسبت إليهم تيارات العنف والتطرف في الحاضر، فإنه سيجد هذا المعنى حاضرًا في أدائه.

٢- السمات الشخصية التي تدعو إلى العنف:

إذا كان الفرد يشعر باغترابٍ داخل مجتمعه، ويبحث عن وسيلة لتحقيق طموحاته بعيدًا عن محيطه، ويتميز في ذات الوقت بشخصية سطحية في تناولها للأمور، ومتعجلة في حكمها على الأشياء والأشخاص، ولديها قابلية للاستفزاز، وتشعر بالرغبة في التنعم بالحرية التي حُرمتها، حيث مُورست عليها ضغوط مادية واقتصادية وأمنية، وأخرى معنوية، فقد أصبحت على حافة الكبت والقهر النفسي، فلو كانت متدينةً، فستميل فورًا نحو التغيير العنيف، تكفيرًا للمجتمع وقياداته وقواعده، واستباحةً للدماء والأموال، تفجيرًا واغتيالًا وانتهابًا!

وأما إذا كانت تلك الشخصية غير متدينةً، فقد تميل للإلحاد، ومن ثمَّ استباحة ما تصل يدها إليه، فتملأ الأرض فسادًا أخلاقيًا وبلاءً، ولا يبعد -أيضًا- أن تغلب عليها نزعات استئصالية ذات طبيعة دموية؛ كالفاشية أو النازية!

وكلا النموذجين حاضر في التجربة البشرية في العصر الحديث، وفي المجتمعات الإسلامية، حتَّى إنَّ بعض الذين انتسبوا للتيارات التكفيرية لمَّا تعرضوا للمعالجات الأمنية العنيفة، انتقلوا إلى طرف التفريط بعنفٍ شديدٍ، فتحلَّلوا من ربة الأحكام الشرعية، وسلكوا مسالك الانحلال الفكري والعملي في النهاية!

ثانياً: الأسباب العلمية والفكرية:

الغلو قرين الجهل مع التعصب، وريب الإعراض عن العلماء مع ظاهرية الفهم، وسطحية الفتيا، وثمره نكدة لاتباع المتشابه، والسقوط في حفرة التأويل والتحريف.

وقد ظهر بعض الغلو كنتيجة حتمية لتشيوخ الكتاب قبل عقود، أما الآن فتشيع الشبكة العنكبوتية، والتلقي عن مجاهيل يفعل بالأمة اليوم الأفاعيل.

وليس سرّاً أن مخابرات أعداء الأمة قد جهزوا جيشاً إلكترونياً بأسماء مستعارة، وصور عربية، ومحتوى يؤجج العنف والغلو، ويحث على الأفعال التي تدين الشباب المسلم.

وأيّ ما كانت الوسائل والأسباب، فإن ذلك الخطأ والخطل العلمي والفكري يورث جمهرة من الانحرافات والعلل والمعوقات للدعوة إلى الله في هذا الزمان، وعلى رأسها: الغلو والتطرف!

فإذا انطلق الشاب أو الباحث من إسقاط أهل العلم كافة، أو تجاهل العلماء عامة؛ سواء من كانوا في بلده، أم في غيرها، ثم عوّل على غير متأهل ممن وصفه الجهل بالكتاب والسنة، ومقاصد الشريعة، ومناهج الاستنباط، مع ضعف وعي بالواقع، وحقائق التاريخ، وسنن الله في الخلق والتغيير؛ فإن العاقبة تبدو مشؤمة، والأمة بهذا المنحى الغالي - ولا بد - مأزومة!

وكيف يغفل هؤلاء عن قوله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»^(١).

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فأحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده، لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار. قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: الجماعة»^(١).

وهذا يعني بقاء العلم والعلماء وأهل الفقه في الدين وأتباع السنة، وأن تلك الطائفة لا يخلو عنهم زمانٌ وإن قلَّ عددها، وأهل الذكر في الأمة - بحمد الله - لا انقطاع لهم، فلم يبق إلا البحث عنهم وسؤالهم، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

والمقصود بالعلماء: الربانيون لا السلطانيون، والصادقون لا المدَّعون.

وفي الحديث: «تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ»^(٢).

فالعلم رحمٌ موصولةٌ بين أهله إلى زمانٍ رفعه، وهذا لا يكون إلا آخر الزمان.

وما من شك أن الربانيين اليوم قلة إلا أنها غير مفقودة، وأن الصادقين نزرٌ إلا أنهم لم ينقطعوا، وأمة الخير هي خير أمة.

والهجوم على العلماء عامة ديدن أهل الغلو كافة، وهذا الهجوم هو ثمرة اعتماد الغلاة على فكرهم المجرد عن نور الوحي، أو فهمهم المنقطع عن فهم السلف من أهل العلم.

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢) من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩٤٧)، وأبو داود (٣٦٥٩)، وابن حبان (٦١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وبسبب من بحوث خاصة -تداول فيما مضى بالأيدي، أما اليوم فهي على شبكة المعلومات تسبح في فضاء لا ضابط له- اجتراً هؤلاء على دماء معصومة، وأعراض مصونة، واستباحوا أموالاً محرمة في ظل غياب أو تغييب منهج أهل العلم الراسخين في مناهج الاستنباط والنظر.

ولا امتراء أن إحجاماً يُنسب إلى كثير من العلماء عن الخوض في غمار مسائل شائكة كان سبباً في تجرؤ مَنْ لا أهلية له، وأن إرهاباً دولياً للعلماء كان سبباً في تجاوز الشباب لحواجز الخوف اليوم، بل كسرهما، وكسر هيبة كثير من العلماء معاً. وإذا جاء الغلو من الجانب العلمي، ويُبْعِد عن مناهج العلماء؛ فإن دعاوى الاجتهاد المطلق -ولو من غير أهلية- سوف ترتفع بها عقائر أقوام، وذم التقليد ستعلو رايته، وزعم اقتفاء أثر الصحابة سوف تُورَد حجته، وسيكون «هم رجال، ونحن رجال» هو شعار المرحلة!

وعدم النظر إلى الحال والمآل، والمقدور والمعجوز عنه من الأقوال والأفعال، سوف يُفضي إلى فتاوى تبلغ الغاية في الغرابة، وعندئذ يختلط الحابل بالنابل، والصحيح بالباطل، وتُستدعى فتاوى تاريخية لغير مناطاتها الواقعية، ويُستدعى حال التنازع اليوم عند البعض في جميع الأمصار، ويتطايّر شرر الفتاوى الطائشة - أحياناً- لينال من مجتمعات المسلمين عامّة، وتحشر جملتهم مع الكفار في الأحكام، كل ذلك البلاء يقع في ظلّ تأويلات باطلة، وتمحلات ساذجة.

وكنموذج واحدٍ فقط يقول شكري أحمد مصطفى رأس جماعة التكفير

والهجرة كما أطلق عليها: «أين هي أمّ القرى الآن في منطقة الشرق الأوسط؟

أين المكان الذي يصدر الكفر إلى العالم العربي؟

أين القرية التي حاربت مَنْ نادى بالجهاد في سبيل الله؟

أين القرية التي تعتبر مُتَّجَة العالم العربي؟

هي -ببداهة- الآن مصر»^(١).

وإذا اجتمع إلى المنهج السالفة معالِمُه عدمُ العناية بجمع أطراف أدلة الشرع المطهر مع اعتماد على رُؤى ومناماتٍ كمصادر للاستدلال والاسترشاد، وعيش في أوهام إدراك آخر الزمان، فإن كلامًا مثل هذا سوف يقال: «هذه الإشارات بيّنت أننا سوف ندرك عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إن شاء الله... نرجو أن نكون أنصار الله في آخر الزمان»^(٢).

وقد وقع جرّاء تلك الأحلام عام (١٤٠٠هـ) استحلالٌ لبيت الله الحرام، وإلحادٌ فيه بظلمٍ وجهلٍ، ما أدّى إلى سفك الدماء المعصومة، ومنع الصلاة بالحرم، وتعطيل الأذان فيه، كل ذلك برؤى شيطانية، أو تخيُّلات وتوهّمات نفسانيّة.

ولو كانت تلك رؤى صادقة، فإنه لا يُستدل بها على ثبوت مهديّة، ولا غيرها

من الأحكام الشرعية!

(١) التوسمات، لشكري مصطفى (ص ١٩ - ٢١).

(٢) التوسمات، لشكري مصطفى (ص ٥٣، ٥٤).

والأمر كما قال الشاطبي رحمه الله: «لا يستدل بالرؤيا في الأحكام إلا ضعيف المنّة، نعم يأتي العلماء بالمرائي تأنيساً وبشارةً ونذارةً خاصةً بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً، ولا يبنون عليها أصلاً، وهو الاعتدال في أخذها حسب ما فهم من الشرع منها»^(١).

وتقريراً للحال؛ فإنّ شدة التناقض بين ما في الشرع وما في الواقع سببٌ دافعٌ، واستعجال الخلاص من البلاء - المتمثل في كثرة المنكرات، وغلبة أهلها على أهل الصلاح - سببٌ في وقوع الغلو مؤثراً.

فليت المندفعين نظروا إلى قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ [مريم: ٨٤]، أو فهموا قول المصطفى ﷺ: «وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»، وذلك في سياق شكوى أصحابه ﷺ له، وهو متوسّدُ بردةٍ له في ظلّ الكعبة حين قالوا له: «ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟! قال: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِأَنْتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ، أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ، لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِيبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(٢).

أو ليتهم عملوا بقوله ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ. قالوا: وكيف يذل نفسه؟! قال: يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»^(٣).

(١) الاعتصام، للشاطبي (١/ ٣٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢٥٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

وبسبب من الانحراف الفكري والمنهجي، فلا تسَل عن استغلال أعداء الإسلام في الداخل والخارج لهذه الفرصة السانحة في ضرب المجتمعات بالفرقة والانقسام، وبث الرعب والإرهاب، والتنفير من الدعوة والدعاة، والتغريب بالشباب.

ثالثاً: الأسباب السياسية والاجتماعية:

إنَّ الغلو وثيق الصلة في أسبابه بالجوانب السياسية والاجتماعية في كلِّ مجتمع، وفيما يلي ذكَّر لأهمِّ تلك الأسباب في واقع الأمة المعاصر:

١- تسيد العلمانية، وتنحية الشريعة الإسلامية:

إنَّ إقصاء شرع الله تعالى مثل أكبر انحراف سياسي واجتماعي وديني في العصر الحديث؛ بل وفي التاريخ الإسلامي بأسره! وما الشرع والشريعة إلا الإسلام كتاباً وسُنَّة! ولقد صاحب تلك التنحية والاستبدال للشريعة تحكيم العلمانية والقوانين الوضعية، ومحاربة محاولات الإصلاح الديني والاجتماعي، ومنع شعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتغييب شريعة الجهاد، وتنكيس أعلامها.

فإن قيل: إن قطب رحي الأسباب السياسية والاجتماعية هو تبديل الشرع، واستدبار القرآن والسنة، وتغيير الحكم بما أنزل الله عن معهود الأمة في ثلاثة عشر قرناً متتابعة - لكان عين الصواب.

وكل من اتهم بالغلو - سواء أكان اتهمه بحق أم بباطل - لا بد وأن يذكر هذا الأمر في مُسوِّغات قيامه بما نُسب إليه من غلو.

وتحكيم الشريعة الإلهية حق لا يختلف عليه اثنان، وما قامت تلك الدعوات الإسلامية المعروفة في مصر والهند وغيرها إلا من أجل تلك المسألة، وقد قال

تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وغني عن البيان أنه ما خرج خارج عن حاكم في الزمان المعاصر إلا وكان متذرعاً - غالباً - بهذا السبب.

فما بال الساسة لا يغلقون باب الشرور على أمتهم بتحكيم شريعتهم؟! وترك استحلال المحرمات المباحة في قوانين من لم يدن بدينهم، أو يدخل في ملتهم؟!

إن العلمانية فكرة غريبة الجذور، وهي في ديار الإسلام نكدة الثمار، والغلو العلماني المتطرف الذي مثله عدد من المفكرين المعاصرين في الشرق هو سبب مباشر ورئيس لما قد يدعى في حق البعض من تطرف أو عنف.

«وإذا جاز أن نطلق على الشباب المتشدد في الدين اسم المتطرفين، فإن الفقيه فرج فودة يعتبر من عتاة المتطرفين بما يعلنه من رفضه المطلق لتطبيق الشريعة فوراً، أو حتى خطوة خطوة، وبما يدعو إليه جهاراً من محاصرة كافة مظاهر التدين في مختلف أجهزة الدولة، وبما يسخر له قلمه من تشويه أعلام الإسلام، وتزييف تاريخه، وتحريض الأمة بمختلف فعالياتها - السياسية، والفكرية، والشعبية - على التيار الإسلامي بمختلف فصائله؛ معتدلين ومتشددين.

هذا، ولا يخفى أن التطرف إلى الدين أفضل من التطرف عن الدين، فالأول قُرب، والثاني جفاءٌ وبُعدٌ، وشتان ما بينهما»^(١).

(١) من قتل فرج فودة؟ (ص ٢٣، ٢٤)، والكلام لفضيلة أ.د. عبد الغفار عزيز، عميد كلية أصول الدين بالأزهر رَحِمَهُ اللهُ.

وقائمة الغلو العلماني زاخرة بأسماء، مثل: المستشار محمد سعيد العشماوي، وحسين أحمد أمين، ونصر حامد أبو زيد، وخليل عبد الكريم، وأحمد عبده ماهر، وغيرهم، وأولئك في مصر وحدها، وفي دول أخرى أمثالهم، لا كثر الله من أمثالهم!

٢- تتابع النكسات، وتوالي الهزائم، وتفاقم الانكسارات:

ف قضية فلسطين الأبيّة لم تنصرها شعارات القومية العربية، بل خذلتها، وإن حرب الأيام الستة في عام (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) كانت هزيمةً انتهت باستيلاء اليهود على الضفة الغربية، والقدس، وشبه جزيرة سيناء المصرية، وهضبة الجولان السورية.

فلم تنفع الأمة عندئذٍ رايةً اشتراكية، كما لم تنفعها بعدئذٍ رايةً ليبرالية، بل نكبتها نكبةً تاريخية، وقويت دولة اليهود الإجرامية، وفشل الحَلّان -الاشتراكي والليبرالي- على حدٍّ سواء.

وما تزال التنازلات تترى عبر اتفاقيات مزعومة لتحقيق السلام، وما هناك إلا التبعية المطلقة لليهود، والخضوع لإملاءاتهم.

والواقع الآن يشهد حروباً تُدار لأجل اليهود، ولتأمين حدودهم من جهة غزة وأهلها الصامدين المرابطين، وما زال شراذم الصهاينة يتجرّعون مذلةً بعد أخرى على يد أبطال غزة المجاهدين إلى أن يأذن الله بتحرير الأقصى، وما خبر معركة سيف القدس رمضان ١٤٤٢هـ / مايو ٢٠٢١م عن الأذهان ببعيد!

أمّا النكبات والانكسارات الاقتصادية، والتخلّف التقني، واختلال أصول البلاد المالية، فحدّث عن هذا ولا حرج، فمن الشيوعية الماركسية إلى الرأسمالية الليبرالية، ومن الإقطاع إلى التأمين إلى الانفتاح الاقتصادي، والبلاد لا تزداد إلا

فقراً، وتخلُّفاً، ومرضاً، فهنا طبقيّة ظاهرة، وهناك سوء توزيع للثروات المُبدّدة، وهناك استثمار بالمال وفرص تداوله، وانحياز في قِيَم بناء المجتمعات، ويأس وإحباط من التمكن من تغيير، أو تطوير حقيقيّ وهو ما أدّى إلى ثوراتٍ شعبيةٍ في عدد من البلاد العربية يطالب أهلها بحرية، وكرامة، وعدالة اجتماعية.

٣- اختلال واعتلال العلاقة بين الحاكم والمحكوم:

في ظلّ تقييد أمنيّ على الدعوة وحرّيتها، ومحاربة لرجالها ورموزها، وتعريض بالدعاة والعلماء في الإعلام، ووسائل التأثير، واضطهاد ظاهر للدعوات بتغييب رجالها في السجون والمعتقلات، ومنع كثيرٍ منهم من ممارسة حقه في التعليم، وواجبه في الإصلاح - كان لا بد للعلاقة بين الحاكم والمحكوم أن تختلّ وتعتلّ بعللٍ شتى.

وللإنصاف، فليس هذا هو السبب الوحيد لاعتلال تلك العلاقة، وقد يرجع بعضها إلى أسباب فكرية، أو أخطاء تربوية، أو محن تاريخية.

وبدلاً من أن تقوم العلاقة على المحبة والتقدير والتوقير، والنصيحة والنصرة ونحوها، في مقابل إقامة الدين، وتحكيم كتاب ربّ العالمين، وتعظيم شريعة خاتم المرسلين، وإصلاح المجتمعات، والسير بسيرة العدل في الخلق، وإقامة الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكفاية الرعيّة، وتقوية الدولة - بدلاً من ذلك قامت العلاقة على الاتهام والعداوة، والبغض والبراء، والخروج والمناجزة بالسلاح!

وهنا لا يصلح بحالٍ تجريد طرفٍ من أخطائه لحساب طرفٍ، وأهل الحكم والساسة هم المطالبون بواجباتهم؛ لأنهم أُجِّروا لدى أممهم.

فَمَنْ أَدَّى واجبه نحو أُمَّتِهِ بتحكيم كتاب ربِّها، وسُنَّة نبيِّها، فقد جاء بالفرض الأعظم، والواجب الأكبر، وما بعده منه أيسر وأسهل، وتأكَّد بذلك حقه في السمع والطاعة، أمَّا من يحكم بالقوانين الوضعية؛ ليخدم مصالح أعداء الأُمَّة، وجاء ليهدم إرادة المجتمع، وعاث في الأرض فسادًا، وفي الدماء تخوُّضًا، فأَنَّى للبلاد أن تستقرَّ وهذا حالها؟! وأَنَّى للغلو أن ينزوي وقد مُهِّدت تربته، وأُخصبت أرضه، ووُجدت ذرائعه ودوافعه؟!!

٤- الانحلال الأخلاقي، والفساد الإعلامي:

حين ترعى الدولة المعاصرة الانحلال الأخلاقي، وتُرَوِّج للفساد التربوي والسلوكي، وتذبح العفاف على أعتاب ما يُسمَّى بدُور السينما، والمسارح والتلفاز، وتُرَوِّج للشهوات بالسماح للمواقع الفضائيات الإباحية من غير منع أو مصادرة، وتعمل على تأجيج السعار الشهواني بطريق مباشر أو غير مباشر، وتغضُّ الطرف عن تجارة المخدرات، وشرب المسكرات - فإن ذلك كله يدعو أهل الصلاح إلى الرفض والإنكار، ويفتح بابًا للحدَّة والشدَّة في إجراء الأحكام على مجتمع يسمح بهذا، أو يستبيح تلك المعاصي الكبار، وتنتشر فيه مذاهب ضالَّة فكرية وأخلاقية، حيث يُحارَب العفاف والحجاب، ويُستَهْتَر بالاختلاط والمجون!

وَمَنْ يطالع أديبات مَنْ اتَّهَمُوا بالغلو، سيجد تعريجًا صريحًا على تلك المنكرات الاجتماعية، ووَصْمها ومجتمعاتها بالجاهلية!

فإذا كانت تلك المنكرات لا ترعاها الدول، فقد هان الخطب، أمَّا أن تكون المنكرات برعايتها وحمايتها ودعمها وتقنينها، فهذا ممَّا يوجب الغضب.

ومؤخَّرًا، استعملت وسائل الإعلام الخاصَّة في حرب أهل الإسلام، وتشويه

صورته، وتآليب العامة عليهم، فتحوّلت من وسائل بناءٍ إلى هدمٍ، ومن أدوات توجيهٍ إلى تضليلٍ، وهي أشد وأنكى أثراً في شهر رمضان دون غيره من شهور العام، وبالله العجب!

رابعاً: الأسباب المحلية والإقليمية:

في سوريا والعراق -خاصّة- رأى بعض الشباب من أفعال تنظيمات الغلو تريباً ضد الشيعة وتجاوزاتهم الشيعة ضد السنة؛ ولهذا اعتبر بعضهم هذا الذي بدأ في العراق ثم الشام ثورةً سنيّة ضد الشيعة الذين أعملوا القتل في أهل السنة بشكل لا مثيل له؛ ولهذا قال عددٌ من قيادات قبائل السنة في مطلع بروز تلك التنظيمات: إنها أفضل شيء حدث للسنة منذ (٢٠٠٨م)، وبعض الشباب القومي والبعثي التحق بهم يأساً من تنظيماتهم البالية، وهكذا تعددت الأسباب المحلية والإقليمية للارتباط بالغلو.



المَبَحْثُ السَّابِعُ

وسائل وأدوات اختطاف الإسلام نحو الغلو

تتعدد الوسائل والطرائق والأدوات التي قد تُقضي بفردٍ أو فئةٍ إلى الانحراف نحو الغلو والعنف، وربما تتداخل الوسائل بالأسباب أحياناً، وربما تتضمن الوسائل أسباباً تُقضي إلى النتيجة المحذورة.

وأيّاً ما كان الأمر، فالمقصود: الحذر والتنبُّه إلى خطورة الأسباب والبواعث مع الوسائل والأدوات التي تُقضي إلى الانحراف والانجراف نحو الغلو العنيف. ويمكن تقسيم الوسائل والأدوات إلى قسمين أساسيين: وسائل مباشرة، وأخرى غير مباشرة، وذلك على نحو ما يلي:

أولاً: الوسائل والأدوات المباشرة:

- ١ - انتشار إرهاب الدولة، والإرهاب الدولي.
- ٢ - صناعة حركات وجماعات الغلو واستثمارها.
- ٣ - دورات التأهيل للغلو والعنف.
- ٤ - السجون والمعتقلات مصانع للغلو والعنف.
- ٥ - الإعلام المُوجَّه والجديد.
- ٦ - تغييب العلماء ودعاة الوسطية والاعتدال.

ثانيًا: الوسائل والأدوات غير المباشرة:

- ١ - تفشي داء الافتراق والتدابير في العمل الإسلامي.
- ٢ - ضغط الاستضعاف الذي تعيشه الأمة.
- ٣ - ردّة الفعل على ما سمي بالصحوات.
- ٤ - الحرب على التدثّن ومظاهره.

وفيما يأتي إضاءات على كل عنصرٍ من تلك العناصر والوسائل المتهمة باختطاف الإسلام ودعوات أهله نحو الغلو:

أولاً: الوسائل والأدوات المباشرة:

١ - انتشار إرهاب الدولة، والإرهاب الدولي:

لقد تولت الدولة المعاصرة في ديار الإسلام كبر الحرب على حريات الشعوب، والتضييق على المناشط الدعوية والسياسية التي لا تتناغم وتوجهات الدولة، وعبر عقود بقيت السجون والمعتقلات زاخرةً بالسياسيين المعارضين، وبرجال العلم والدعوة والدين.

وفي أثناء ما عُرف بثورات الربيع، وما قبلها وما بعدها، مارست الدولة في بلادٍ عديدة أنواعاً من الإرهاب والتخويف والبطش والتنكيل بالشعوب المتعطّشة لحريتها وكرامتها، وقلّصت هوامش الحريات، وأنهكت وانتهكت وأضعفت الشعوب عبر سلسلةٍ من الضغوط الأمنية والسياسية الشديدة، ليس آخرها القتل والاغتيال خارج نطاق القانون.

ولقد طال إرهاب الدولة الرجال والنساء والشباب والأطفال على حدّ سواء،

وتناولتهم محاكمات هزلية بأحكام جائرة، فقد معها القضاء احترامه، وتنازل فيه عن حياديته.

وما من شك أن هذا المناخ الداخلي قد آذن بنشوء حركات غلو وعنف وتطرف تمثل رد فعل للإرهاب الذي مارسته الدولة بأجهزتها المختلفة، بدءاً من المؤسسة الأمنية والعسكرية، مروراً بالمؤسسة الإعلامية، وانتهاءً بالمؤسسة القضائية!

ومن غير شك، فإن وجود وإيجاد حركات ومجموعات العنف المضاد هو -بحد ذاته- هدف مباشر للدولة التي رضيت بالدخول في معركة ضد شعبها، أو على الأقل ضد بعض أبناء شعبها.

أما الإرهاب الدولي، فحدث عن انتشاره ولا حرج؛ ولذا كان المسلمون ينظرون إلى الإرهاب على أنه عدوان يمارسه فرد، أو جماعة، أو دولة؛ بغياً على الإنسان في دينه، أو دمه، أو عقله، أو عرضه بغير حق^(١)، وإنما هو ابن شرعي - في الجملة - لتلك الحضارة التي مارسته عبر تاريخ ضارب في شعاب الزمن، وحتى وقت الناس هذا.

وإذا كان الإرهاب اليوم غربياً محضاً إلا نزرًا يسيراً يمكن إدراجه من خارج المنظومة الغربية؛ وذلك طلباً لغاية الإنصاف، فإن هذا الإرهاب الدولي الذي يمارسه أرباب النظام العالمي يمثل سبباً مباشراً في كسر هيئة هذا النظام العالمي، ويقضي عليه نهائياً.

وهذا بشهادة منصف الغرب من مفكريه وكتّابه السياسيين.

(١) بيان مجمع الفقه الإسلامي برابطة العالم الإسلامي بمكة ١٠ / ١ / ٢٠٠١ م.

وقد سبق قول المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي: «الواقع أن قيادة الولايات المتحدة الحالية متطرفة في هذا السياق، ولكن الأمريكيين ملتزمون بصراحة ووضوح باستخدام العنف للسيطرة على العالم، وهم يقولون ذلك علناً!»^(١).

وكيف لا تكون الولايات المتحدة رأس الإرهاب وأُسّه عند تشومسكي، وهي تُعلن في كل مناسبة انحيازها لدولة الكيان الصهيوني في قتلها وانتهاكها للفلسطينيين العزل في سائر الأراضي المحتلة، ولا أدلّ على ذلك من تصريحات الرئيس بايدن وإدارته، حول العدوان الصهيوني على غزة في رمضان ١٤٤٢ هـ.

وتاريخ الأداء الغربي عامة، والأمريكي خاصة، في نحو قرن ونصف قرن من التآجيج والإذكاء المستمر للعدوان باستعمال القوة العسكرية الغاشمة - ينتهي إلى تأكيد عدوانية تُهدّد بقاء العالم وأمنه في النهاية، وهذا استعراض مُركّز وسريع لتلك الأعمال التي قامت بها أمريكا، والتي لا تخرج عن مُسمّى الإرهاب، وتندرج تحت أي تعريفٍ يعتمدونه له:

- في عام (١٨٣٣ م) قامت القوات الأمريكية بغزو (نيكاراغوا).

- وفي عام (١٨٣٥ م) دخلت هذه القوات إلى (بيرو).

- وفي عام (١٨٤٦ م) احتلت القوات الأمريكية أرضاً طالبت بها المكسيك، وهي ما تعرف الآن بولاية (تكساس)؛ وبهذا أثّرت الحرب المكسيكية، وفي أعقاب انتصار سنة (١٨٤٨ م) ضمت الولايات المتحدة تلك الأرض بالإضافة إلى (كاليفورنيا)، و(نيومكسيكو).

(١) القوة والإرهاب، نعوم تشومسكي (ص ٤٨).

- وبعد ذلك بعام غزت القوات الأمريكية (أورغواي)، ثم قامت بغزو قناة (بنما).
- وفي عام (١٨٥٧م) تدخلت القوات الأمريكية في (نيكاراغوا)؛ لإفشال محاولات (وليم روكز)، وهو مغامر من (تنيسي) حاول تولي السلطة في (نيكاراغوا).
- وفي عام (١٨٧٣م) قامت القوات الأمريكية بغزو (كولومبيا) بعدة إنزالات عسكرية تتابعت في الأعوام (١٨٨٥م)، (١٨٨٩م)، (١٨٩٣م)، (١٨٩٨م)، (١٨٩٩م).
- وفي عام (١٨٨٨م) تدخلت القوات الأمريكية في (هايتي).
- وفي عام (١٨٩٠م) تدخلت قوات أرضية، فقتلت (٣٠٠) هندي، (الأكوتاس) في (واندو ودني).
- وفي العام نفسه تدخلت القوات الأرضية في الأرجنتين لحماية مصالح في (بيونس أيرس) العاصمة.
- وفي عام (١٨٩١م) تدخلت في (تشيلي) بمواجهة بين البحرية والمتمردين المحليين، وفي العام نفسه تدخلت لقمع ثورة العمال السود في جزيرة (ناقاسا).
- وفي عام (١٨٩٣م) تدخلت القوات البحرية والأرضية في (هاواي)؛ لضم المملكة المستقلة إلى الولايات المتحدة.
- وفي عام (١٨٩٤م) تدخلت القوات الأمريكية مرة أخرى في نيكاراغوا، واحتلت (بلوفيد) لمدة شهر.
- وفي عامي (١٨٩٤، ١٨٩٥م) تدخلت في (الصين، وكوريا، وبنما) بعمليات برية وبحرية.
- وفي عام (١٨٩٦م) تدخلت في (نيكاراغوا)، ودخلت قوات المارينز مرفأ (كورينتو).

- وفي عام (١٨٩٨م) كانت الحرب الأمريكية الإسبانية، حيث افتعلت الولايات المتحدة حادثة كوبا، وقد حاصر على أثرها الأسطول الأمريكي الموانئ الكوبية، بينما قام الجيش والمتطوعون بما فيهم من رجال (تيودور روزفلت) بسحق القوات الإسبانية على الشواطئ، وفي العام نفسه تدخلت في (الصين، والفلبين)، وواجهت هنود الشيواس في (بيروتا)، وتدخلت في (نيكاراغوا)، وفي (غوام) التي لا تزال قاعدة عسكرية لها.
- وبعد ثلاثة أعوام جعلت الولايات المتحدة من (كوبا) وكراً أمريكياً للقمار، كما ضمنت الحق في قاعدة بحرية في خليج (جوانتانامو)، وما زالت تحتفظ بها.
- وفي عامي (١٩٠١، ١٩٠٢م) تدخلت القوات الأمريكية في (كولومبيا).
- وفي عام (١٩٠٤م) تدخلت في كوبا، وفي جمهورية الدومينيك.
- وفي عام (١٩٠٦م) تدخلت القوات الأمريكية، واستولت على ست مدن في (هندوراس)، وفي العام نفسه تدخلت في (كوبا).
- وفي أعوام (١٩٠٧م - ١٩١٢م) تدخلت في (هندوراس)، وفي (نيكاراغوا)، وفي (بنما، والصين، وكوبا).
- وفي عام (١٩١٤م) دخل المارينز الأمريكيون (هايتي) في عملية إنزال، حيث سرقوا البنك المركزي استرداداً لأحد الديون.
- وبعد سنة واحدة (أي: في عام ١٩١٥م) دخلت القوات الأمريكية (هايتي)، واحتلت البلاد حتى عام (١٩٣٤م).
- وفي عام (١٩١٤م) أمر الرئيس (ولسون) القوات البحرية بقصف واحتلال (فيركروز).

- وفي عام (١٩١٦م)، وبعد غارات مكسيكية على الأراضي الأمريكية، أرسلت قوة بقيادة (بير شنغ) حيث دخلت (المكسيك) لمطاردة زعيم الثوار (بانكوفيل).

- وفي عام (١٩١٦م) تدفقت القوات الأمريكية إلى (الدومينيكان)؛ لتهمز الثوار، وتسيطر على البلاد بحكومة عسكرية حتى عام (١٩٢٤م).

- وفي عام (١٩٣٢م) تدخلت القوات الأمريكية في (السلفادور) بمساعدة السفن الكندية.

- وفي عام (١٩٦١م) غزت أمريكا خليج الخنازير في (كوبا) بواسطة جيش من المبعدين الذين تبنتهم، وانتهى هذا الغزو إلى الفشل.

- وفي عام (١٩٦٢م) فرض الرئيس كينيدي حصارًا جويًا وبحريًا على (كوبا) لإجبار السوفيت على إبعاد صواريخهم الذرية من الجزيرة، وفي هذا العام -أيضًا- تدخلت أمريكا في (جامايكا)، حيث استقرت شركة (ليل) و(تيت)، و(بوند نروت).

- وفي عام (١٩٦٥م) حصل التدخل في جمهورية (الدومينيكان).

- وفي عام (١٩٦٧م) ساعدت المخابرات المركزية الأمريكية (سي. آي. إيه) عسكري (بوليفيا) على (جيفارا) في بوليفيا.

وفي هذه الأثناء وقعت التدخلات الأمريكية في (فيتنام، وكوريا).

- وفي عام (١٩٦٧م) أمدت الولايات المتحدة الأمريكية إسرائيل بالمال والعتاد والأسلحة، ونتج عن ذلك هزيمتها للعرب في نكبة حزيران عام (١٩٦٧م).

- وفي عام (١٩٧٣م) وقفت الولايات المتحدة عن طريق وزير خارجيتها هنري كيسنجر إلى جانب الصهاينة في حرب العاشر من رمضان.

- واعتبارًا من تولّي الرئيس ريجان للسلطة عام (١٩٨٠م)، وهي ترسل المساعدات لمستشاري وعملاء ال(سي. آي. إيه) إلى مختلف بلاد العالم.
- وفي عامي (١٩٨١، ١٩٨٢م) بدأت أمريكا بتعزيز أساطيلها العسكرية في الخليج، ونشر الصواريخ في أوروبا.
- وفي عام (١٩٨٣م) تدخّلت القوات الأمريكية في لبنان بدعوى حفظ السلام، وغزت (جرينادا) في أمريكا اللاتينية، وهندوراس.
- وفي عام (١٩٨٤م) تدخّلت في إيران بإسقاط طائرتين إيرانيّتين في الخليج.
- وفي عام (١٩٨٦م)، (١٩٨٩م) قصفت القوات البحرية والجوية ليبيا.
- وفي عام (١٩٩٠م) تدخّلت في ليبيريا والعراق.
- وفي عام (١٩٩٢م) تدخّلت في الصومال من القارة الإفريقية، وفي غيرها من مناطق العالم؛ مثل: يوغوسلافيا.
- وفي عام (١٩٩٤م) تدخّلت في (هايتي)، وضربت حصارًا على الحكومة.
- وفي عام (١٩٩٥م) تدخّلت في (كرواتيا).
- وفي عامي (١٩٩٦، ١٩٩٧م) تدخّلت في زائير، وفي ليبيريا.
- وفي عام (١٩٩٧م) تدخّلت في ألبانيا، وفي السودان، وفي أفغانستان، وفي العراق.
- وفي عام (١٩٩٩م) قصفت يوغوسلافيا.

- وفي عام (٢٠٠١م) تدخلت في مقدونيا، وفي أفغانستان.
- ثم جاء احتلال العراق، وارتكاب أفظع جرائم الحرب الدولية بحق المدنيين، والعزل، والأسرى على حدٍّ سواء^(١).
- أما تفصيل ما جرى في العراق وأفغانستان من ذلك الحين عام (٢٠٠١م)، إلى عام (٢٠٢١م) فيضيق عن وصفه المقام.
- ثم ما يجري اليوم باليمن وسوريا والعراق وليبيا وفلسطين من مجازر دموية كلُّ الدنيا تشهد عليه، برغم الدَّجل الإعلامي الذي لا نظير له، مما يعتبر تصفية حساب مع أهل السُّنة نتيجة الهزيمة المذلَّة للقوات الأمريكية في العراق بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما أعقبها من حروب.
- وهو إرهابٌ تشترك فيه دول الغرب -مجتمعةً ومنفردةً- عبْر تحالفاتٍ دوليةٍ وبدونها.
- وأما فيما يتعلَّق بالمواثيق الدولية، وانتهاك القوانين الدولية بلا حسيب، ولا رقيب، ولا تعقيب، فقد كتب عنه (ريتشارد دوبوف) مقالاً قبل عشرين سنةً بعنوان: «المواثيق الدولية عندما تدوسها أمريكا» نقتطف منه فقراتٍ تتعلق بموقف أمريكا من الاتفاقات الدولية في سنةٍ واحدةٍ.
- ففي عام (٢٠٠١م) انسحبت أمريكا من اتفاقية (١٩٧٢م) للحد من الصواريخ الباليستية.

(١) يراجع: الإرهاب... نظرات لغوية وشرعية وقانونية مقارنة، عثمان جمعة ضميرية (ص ١١٥-١٢٠).

- وفي عام (٢٠٠١م) أعلن (جون بولتون) مساعد وزير الخارجية الأمريكي وقتها: أن بروتوكول تعزيز ميثاق الأسلحة البيولوجية والسّمية قد مات.

- وفي عام (٢٠٠١م) كانت أمريكا هي الدولة الأولى التي عارضت اتفاقية الأمم المتحدة للحدّ من تداول الأسلحة الصغيرة في العالم لمناقشة قضايا تتعلق بالتجسّس الاقتصادي، والرقابة الإلكترونية على المكالمات الهاتفية، ورسائل البريد الإلكتروني، ورسائل الفاكس.

- وفي عام (٢٠٠١م) رفضت أمريكا المشاركة في مؤتمر منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الذي انعقد بباريس لبحث سبل محاربة ممارسات غسيل الأموال، والتهرّب الضريبي.

- وفي عام (٢٠٠١م) انسحبت أمريكا من المؤتمر الدولي حول العنصرية الذي شاركت فيه وفود حكومية من (١٦٣) بلدًا بجنوب إفريقيا.

- وفي عام (٢٠٠١م) أجازت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارًا يدعو للمرة العاشرة على التوالي لإنهاء الحظر الذي تفرضه أمريكا على كوبا، وصوّتت لصالحه (١٧٦) دولة، وعارضت أمريكا وإسرائيل وجزر مارشال.

هذه تصرفات الدولة العظمى في سنةٍ واحدةٍ ضد موثيق ومؤتمرات وبرامج الأمم المتحدة، ومن راجع انسحابات أمريكا من الاتفاقيات والمؤسسات الدولية في عهد ترامب (٢٠١٦-٢٠٢٠م) وقف على جملةٍ كبيرةٍ من الانسحابات، وعددٍ هائلٍ من ممارسات (الكابوي) السياسية!

وفيما يتعلق بملف المهاجرين واللاجئين، فبعد الهولوكوست الذي جرى

لمسلمي البوسنة والهرسك بداية التسعينيات، وجريان الدماء أنهارًا في سوريا والعراق - منع رئيس أمريكا السابق سكان سَبْع دول إسلامية من دخول أمريكا، ولم يجرؤ أن يعترض عليه أحدٌ إلا بعض من يعيش في الغرب.

إن الذي جرى في العراق وسوريا وليبيا واليمن لَمُفْزَعٌ جدًّا، إنهم يقتلونهم بحمم الطائرات وقذائف النار، فإذا فرَّ الناس إلى بلاد الغرب هجرةً ولجوءًا ليأمنوا، أُوصِدت دونهم الأبواب، ولقي الآلاف مصرعهم في لجج البحار عبر موجات هجرة تمنع شريعة الظلم قبولها؛ إذ على الناس أن يبقوا تحت نار القتل بالبراميل، وقذائف الطائرات الغربية!

لقد فقد اليمين المسيحي لغة السياسة، ودهاء خطاب المستعمرين، وأصبحت السياسة العليا شعبية معلنة، إنه زمن الحمقى! أو الذين لا يقفون وراء لغة حذق أو نفاق!

إن الحرب المستمرة على العالم الثالث - والشرق الأوسط خاصة - ضرورة للقهر، وتطوير السلاح وتجربته، ولبقاء المصانع ودورة رأس المال، والتنافس على تجنيد الأتباع في كل مكان.

يجري كلُّ هذا والعالم الإسلامي ما زال مُصِرًّا على سلوك وخطاب السلم والأمن^(١)!

(١) مقال: تطرف الغرب يصنع تطرف الشرق، د. محمد الأحمر، مجلة أوامر، العدد الأول، ٢٠١٧م.

وتلك التصرفات العدوانية المتعجرفة لا يُسمح بنقدها رسمياً، ولا يسوغ أن تُناقش دوافعها الاستعمارية، أو حتى تسميتها بأسمائها الحقيقية؛ فالمقاومة المشروعة إرهاب، وتدمير البنية التحتية للعراق وسوريا تحرير!

وهكذا يترافق مع العدوان العسكري عدوان فكري ثقافي؛ بل عدوان لغوي بقلب معاني المصطلحات، وهذا فعل متكرر عبر تاريخ المنظومة العالمية!

فقد قالت إيطاليا الاستعمارية: إنها ذاهبة لتحرير ليبيا من الأتراك.

وقالت فرنسا الاستعمارية: إنها ذاهبة للجزائر لتحريرها من الاستعمار التركي!

وقالت أيضاً: إنها ذاهبة لدمشق لإخراج الجيش الحجازي الغازي!

وقالت أمريكا: إنها ذاهبة لتحرير الشيعة من السنة، والأكراد من العرب في العراق، ونسوا أن المسلم هو ابن أمته في كل ربوعها!

ومن عجب أن تتفق شروط الجنرال (غورو) على الجيش العربي في سوريا قديماً مع شروط (بول بريمر) الحاكم الأمريكي في العراق (٢٠٠٣م)، مع أن بينهما مائة عام تقريباً.

ثم تحالفوا جميعاً لتحرير سوريا من الإرهاب المزعوم، وتقديمها إلى النظام النصيري (الوكيل الحصري والطائفي للنظام العالمي في سوريا)!

وصار المقاومون للظلم والاحتلال إرهابيين بعد أن كانت تسميتهم: ثواراً مقاومين! وجرى إعادة انتخاب سفاح سوريا رئيساً، بدلاً من تقديمه للمحاكمة! إنها مجرد رسالة للشعوب السنية في المنطقة!

وفي هذا السياق لا بد من ذكر شهادات علماء غربيين على هذا الإرهاب المنظم في تاريخه الماضي، وفي واقعه المعاصر.

وإذا كان أكبر مستشاري الغرب المعاصرين وأكثرهم تطرفاً في مواقفه لم يستطع أن يتستّر على هذا الإرهاب، فماذا عسى الآخرون أن يقولوا؟!

يقول برنارد لويس: «... غير أن شعوب الشرق الأوسط غير مخطئة في رفضها اعتبار أمريكا شيئاً مختلفاً عن أوروبا، وغير ملطخة بماضي أوروبا، فأمريكا هي جزء من الرومان والجرمان، بروتستانت وكاثوليك المسيحية الغربية التي تمثل الغرب التاريخي، والتي كانت لألف سنة عدواً للممالك الإسلامية، ومصدراً للتأثير الجامح الذي هزّ العالم الإسلامي في الأزمنة الحديثة، فأمريكا الآن هي زعيمة هذا الغرب، ولا يمكنها التنصّل منه، فهي متصلةٌ به اتصالها بلغتها وثقافتها ودينها ومؤسساتها»^(١).

ويقول رئيس بلدية (كليفلند) الأمريكية متهمًا ومتهمًا: «إذا لم نكن واعين، فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر، بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات!»^(٢).

ومع الإقرار بوجود أصوات غربية متعقّلة، إلا أن التوجّه الرسمي يعلن استراتيجيته بوضوح، ففي يونيو (٢٠٠٢م) خرج (بوش الابن) ليعلن مبادئ

(١) الغرب والشرق الأوسط، برنارد لويس، ترجمة: نبيل صبحي (ص ١٧٢)، اكتشاف المسلمين لأوروبا، برنارد لويس، ترجمة: ماهر عبد القادر (ص ٣١٢-٣٢٢).

(٢) إنسانية الإنسان، رينيه دوبو، ترجمة: نبيل صبحي (ص ١٨).

استراتيجيته الجديدة للأمن القومي الأمريكي في خمس نقاطٍ محددة:

أ- سوف تبذل أمريكا ما في وسعها للحفاظ على تفوقها عسكريًا.

ب- تحتفظ لنفسها بحق ممارسة الفعل العسكري الوقائي (وهي عبارة مُهذبة للعدوان).

ج- العلاقات الدولية هي علاقات قوة، وليست علاقات قانون.

د- أمريكا في وضع يؤهلها لفرض رؤيتها ومصالحها وقيمها على العالم بأسره!

هـ- بما أن إدارة (كليتون)، و(بوش الأب) لم تنجح في الاستفادة الكاملة من القوة الصلبة، فإنَّ على أمريكا (بوش الابن) أن تؤكد تفوقها في العالم^(١).

ورفعت أمريكا شعار: «من لم يكن معنا، فهو ضدنا ومع الإرهاب»!

وبعد اعتماد تلك الاستراتيجية، هل انحسر ما يسمى بالإرهاب؟! سواء ما تمارسه أمريكا ضد العالم، أو ما يمارسه خصومها في بلاد كثيرة، وهل المستقبل يعطي مؤشرات متفائلة؟

لا أحد يقول اليوم: إن أمريكا بعد مُضي نحو عشرين عامًا من حربها على أفغانستان انتصرت بقوتها الصلبة، بل الثابت اليوم أنها تتفاوض مع طالبان لتصل إلى ما يحفظ لها ماء وجهها! ثم ها هي تخرج في ٢٠٢١م بخُفي حنين! كما أنه لا أحد يقول: إنه بقمع الثورات السورية والمصرية واليمنية والليبية

(١) المحافظون الجدد والنظام الدولي، جوناثان كلارك، وستيفان هالبر، كمبردج ٢٠٠٥م.

في الشرق عسكرياً قد استقرت الأمور، بل إن رواق السخط الشعبي قد امتدَّ اليوم إلى الجزائر أيضاً.

وما تزال التدخلات الإيرانية في المنطقة العربية وما تمثله من هاجس عدواني - قائمة!

وما جرى في العراق، وسوريا، ولبنان، ثم في اليمن ليس خافياً!

أمّا ما يقع على الجانب الفلسطيني من إرهابٍ وقتلٍ يوميٍّ، وهدمٍ للبيوت، وإبعادٍ وتهديدٍ للمسجد الأقصى وتهويدٍ؛ فإنَّ نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، والاعتراف بها عاصمةً مُوحَّدةً للكيان الصهيوني مما يؤجج نار الغضب، ويزيدها اشتعالاً!

أفبعد كل هذا الإرهاب الدولي المنظم تُوجَّه للعالم الإسلامي تهمة الإرهاب لمجرد أن بعض شبابه تحمسوا، أو عن أنفسهم دافعوا، أو لصدِّ العدوان على بلادهم وأعراضهم ومقدساتهم استعدُّوا! أو حتى بسببٍ من تلك الضغوطات الهائلة انحرفوا!

وإذا قُدِّر وجودُ غلوٍّ بين بعض الفئات والشباب، فما هي مسؤولية إرهاب الدولة والإرهاب الدولي عن ذلك الانحراف؟! لِيُجب عن هذا المسئولون بإنصافٍ.

٢- صناعة حركات وجماعات الغلو واستثمارها:

إن تيار أهل السنة والجماعة هو الإسلام السُّني المقاوم لكل صور الهيمنة الغربية والحملات الاستعمارية عبر التاريخ وفي الواقع، وقد حاول الغرب عبر

القوة الناعمة والخشنة أن يُحدث انحرافاً في بوصلة الفكر السُّني وممارساته العملية، ففشل مرةً بعد أخرى!

ولقد حاول تبني تيارات عقلانية، وإسلام حدّاثي، وأنماط عملية إصلاحية -دعوية وغير دعوية- عبر تجديد الخطاب الديني، وصناعة رموز دعوية جديدة عبر الدعاة الجدد، ولكن لم تؤت ثماراً مرجوة؛ ذلك أن أمة أهل السنة أمة نقّادة، لا تروج في سوقها العملات المزيفة، ولا الدعوات المستأنسة استعمارياً! وكان من أفتك أسلحة المحاربين للإسلام السُّني المقاوم فكرياً وعملياً: ما تفتقت عنه قريحة الشيطان بصناعة حركاتٍ وجماعاتٍ من الغلاة، تكون مهمتهم الأولى الحرب على جماعات الحركات الإسلامية المعاصرة، والتي عرفت باعتدالها الفكري والعملي، ومقاومتها للتغريب والاستعمار، فعلى المستوى العلمي الدعوي جرى إنشاء ذراع دعوي سلفي يمثل غلوّاً سلفياً في ولاية الأمر، وجفاءً شديداً في حق أهل العلم والدعوة بحيث ترتفع أصواتهم بقضايا سلفية متفق عليها، ولا تمثل قلقاً لبيئتهم التي فيها نشأوا، ثم يكرّون - بعد تعلقهم ببعض الرموز العلمية بشكل مصطنع - على كل عالم وداعية يأمر بمعروف، أو ينهى عن منكر، أو يعمل بعيداً عن إطار حكومي يهيمن على حرية الكلمة في فمه، ويكبّل قدرته على نصرته دينه وأمته، فيوسعون العلماء قدحاً وجرحاً لآتفه الأسباب، ويرمونهم بتهم غائمة هائلة لأدنى ملابسة، ويكون لديهم أنه لا يُثني على منهجهم، أو لا يسلك في ذم أهل العلم مسلكهم!

فمثلوا غلوًا سلفيًا في الجوانب النظرية والفكرية، ثم مثلوا إرجاء عقديًا في الجوانب المتعلقة بالعلمانية، واقتصروا على إنكار منكرات القبور دون منكرات القصور!

ثم نسبوا الدعوات كافة -سلفيها وإخوانيها وتبليغيها وجهاديها- إلى بدعة الخوارج المغلظة، وتمحلّوا في ذلك بكل سبيل!

ومازالوا ردّاء لكل مبطل بقولهم وتحريضهم، حتى حملوا السلاح في ليبيا على إخوانهم الدعاة من كل اتّجاه، فقتلوهم وقاتلوهم مع الخارجين عن كل شريعة وشرعية! بل قاتلوا مع النصارى والعلمانيين من كل ملة!

ومثل ذلك ما وقع في اليمن، وهم متهيئون لمثل ذلك في مواقع عدة إذا اقتضى الأمر، لكن الالاف للنظر أن لهم قيادة وولي أمر يرجعون إليه في العالم بأسره، ويأتمرون بأمره ولو خالف ولي الأمر في البلد التي فيها يعيشون، وفي كنفها يتحركون! فإن وقع خلاف بين ولي أمر بلادهم التي يعيشون فيها، وولي الأمر الذي له يدينون بالولاء، صاروا حربًا وإلبًا على ولي أمر بلادهم؛ إن سرًا، أو سرًا وعلانيةً، فيالله العجب!

وعليه؛ فإن هذا التيار الذي تردّى بالرداء العلمي، وتبنّى الفكر الغالي بصناعة مخبرائية - قد تحوّل إلى العنف والقتال في جبهاتٍ أخرى بعد العنف في إجراء الأحكام باستباحة الدماء وتبديع المخالف!

وهكذا كان الهدف الأساسي القضاء على التيار السلفي العلمي المقاوم، المحتسب على المفاسد والمنكرات كافة!

وعلى صعيد الجماعات الجهادية والقتالية، فقد قررت أجهزة أمنية متعددة -بعد اختراقها لعددٍ من تلك المجموعات الجهادية التي شاب معتنقيها وحركتها الجهادية شائبةُ غلوٍ- أن تصنع صنعةً تقوم على تبني الغلو في الأحكام النظرية على المكلفين، وفي السعي العملي في ساحات الجهاد؛ لينتهي الأمر بجهاديين إلى ترك عبّاد الأوثان، وتكفير أهل الإيمان، ومن ثمّ قتالهم، وعلى الأخص التيار الجهادي السني الأصيل، والأقل عنفاً وغلوّاً وانحرافاً عن ذلك التيار المصنوع، بل لا مقارنة في هذا السبيل!

وانطلق الأمر من ولاءٍ لما يسمى بقاعدة الجهاد، وعملٍ داخل عباءته؛ ليتحوّل بعدها إلى استقلالٍ في العراق، ثم ليمتد إلى الشام، ثم لتعلن خلافة عامة، ثم يعتبر كل من عداهم على وجه الأرض قد خرج عنهم، وحلّ دمه بهذا الاعتبار!!

وأول من يقاتل على هذا هو تلك الفصائل السلفية والجهادية على أرض سوريا، الأمر الذي انتهى بتقويض الجهاد هناك لحساب النصيرية والتحالف الدولي بقيادته النصرانية!

وارتكب في الحرب على المجاهدين والمقاومين من شركاء الساحة هنالك من المخازي والمآثم، واستبيح من المحرمات ما يندى له جبين كل مسلم!

وانتقل الأمر من الشام إلى العراق حتى قرّرت أعين الاستعمار بالقضاء على المقاومة السنية في كل مدن العراق التي استعصت على الأمريكان مرةً بعد أخرى في حربهم على العراق، وسقطت الموصل بعد الفلوجة والرمادي وغيرها من معاقل السنة؛ ليتسلّمها الشيعة خراباً بعد عمران!

وتحقق للغلاة الذين تدثروا بعباءة الخلافة والجهاد لإخوانهم بزعم ردّتهم تارةً، وبأنهم صحوات تارةً أخرى - ما لم يتحقق للأمريكان وتحالفهم على العراق بعد الحادي عشر من سبتمبر وسقوط نظام صدام!

ثم لمّا تحقّقت أهداف الأجهزة المخبرانية بالقضاء على جيوب المقاومة السنية في العراق والشام، كان استهداف الغلاة سهلاً ميسوراً، وتعقبهم أمراً مقدوراً؛ وذلك من أجل اختراقهم سابقاً، وانكشاف ظهورهم لاحقاً بعد أن تولوا إفشال غيرهم بزعم أنه بإعلان الخلافة صار واجباً على جميع المسلمين مبايعة ونصرة الخليفة حفظه الله!!

وبناءً عليه، فإنه تبطل مشروعية جميع الإمارات والجماعات والولايات والتنظيمات التي يتمدد إليها سلطانه، ويصلها جنده^(١)!

وهكذا زعموا انتهاء مشروعية كل جماعةٍ مجاهدةٍ سواهم -على الأقل- في العراق والشام!

ولقد ارتكب باسم الجهاد والخلافة كثير من الفظائع والشنائع التي سوّقت على أنها أنموذج مبسط لحكم الإسلام القادم -لو حكم في مستقبل الأيام- وهو ما جعل الغرب والشرق معاً ينقلان تلك الأعمال، وما أضافته آلة الدجل الإعلامية من إضافات، ويلصقان بالشرق والإسلام نقيصة الهمجية، وخطيئة العدوان، ورذيلة التعطش للدماء!

(١) إعلان الخلافة، أبو محمد العدناني، نقلاً عن التنافس بين القاعدة وتنظيم الدولة، محمد محمود أبو المعالي (ص ٣٣)، مركز الجزيرة للدراسات.

٣- دورات التأهيل للغلو والعنف:

بشكل عام ينقسم تنظيم الدولة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: القيادة العليا: وهؤلاء عددٌ محدودٌ جدًّا، ويملكون القرار السيادي والعسكري، والاستخباراتي والمالي والعلاقات الخارجية، ولم يُعرف منهم إلا أبو بكر البغدادي بشكل علني، وأبو محمد العدناني، والبقية غير معلومين بشكل دقيق، وحولهم تدور كثير من الشبهات في الصلات والعلاقات.

والقسم الثاني: القيادات الوسيطة من ميدانيين وشرعيين، وهؤلاء لا يبلغون (٥٪) من حجم هذا التنظيم، وعندهم القرار التنفيذي، والتدريب والتثقيف والتعليم، وغير ذلك من مهامّ عملية إعلامية.

والقسم الثالث: القاعدة الشبابية، وهؤلاء يمثلون نحو (٩٥٪) من هذا التنظيم، ممن داعبتهم أحلام العزة، وراودتهم طموحات التحرر والكرامة، وكثير منهم لم يتمكن منه فكر الغلو قبل الالتحاق والانضمام والتجنيد.

وهؤلاء هم القوة الضاربة والذراع العملية لمثل هذه التنظيمات، وهم الذين ارتكبوا أعمال التفجير والقتل البشع تحريقًا وتغريقًا وقطعًا للرؤوس، وغير ذلك! وهؤلاء لا يتحولون من مجرد عامّة وشباب لا يحمل سوى أشواق الجهاد، وحب الاستشهاد إلى متفجرات انتحارية وآلات للذبح إلا بعد مرحلة من التأهيل والتأصيل الفكري والشرعي لكل ما يتعلق بفكر الغلو في الحكم على الناس، وما يترتب عليه من استباحة الدماء، وقتال أهل الإسلام قبل غيرهم!

والذين يتولون هذا التحويل الفكري نحو الغلو هم من يُسمَّون بالشرعيين، الذين يُعلِّمون هؤلاء الشباب من خلال دورات مكثفة ما يستندون إليه من حجج وتأصيلات في ممارسة أعمالهم القتالية، وما يسوِّغون به ما يستنكره العامة والخاصة عليهم، بدءًا من استقلال فئة من المسلمين بإعلان الخلافة، مرورًا بالحكم على الناس، وما يتعلَّق بأحكام القتال والجهاد، والموقف من المخالفين من فصائل الجهاد الأخرى، وكيف ساغ لهم استباحة دماء الجميع!

وعليه، فإن هؤلاء الشرعيين الذين يرجعون إلى بلاد عدَّة كمصر والسعودية وسوريا والعراق وتونس وغيرها، ويعودون إلى توجُّهات مختلفة، فمنهم من كان في بلده محبوبًا في قضايا تنظيمات التكفير والهجرة؛ كبعض المصريين، ومنهم من كان من الجهاديين، ومنهم من كان من طلبة العلم الذين انحرفت بهم السبيل، ومنهم دون ذلك، ولكنهم أصبحوا متابعين وموافقين، وربما غير قادرين على الاعتراض على بعض ما ينكرون!

واللَّفت للنظر أن بعض أولئك كانوا معتقلين قبيل انطلاق التنظيم، فأُطلق سراحهم من سجون بلادهم، ونُصحوا بالتوجُّه للعراق، وبعضهم أُوصِل للحدود! وقد استُعمل في تلك التهيئة النفسية والفكرية عدد من الأفلام التسجيلية والإعلامية الدعائية، وعدد من أفلام تصوير العمليات التي يقومون بها، وعدد آخر من الأناشيد الحماسية، وهذه الأدوات المهمة استهوت الشباب المستفَزَّ المستضعف الذي يشعر بالإهانة والمهانة في بلاده، ومن حكوماته!

وكان لتلك الأفلام التي أُخرجت بعناية فائقة حتى أصبحت تشبه أفلام الرعب التي تنتجها هوليوود- ذلك الأثر الهائل في نفوس الشباب العربي والغربي على حدٍّ سواء^(١).

فإذا اجتمعت آيات وأحاديث وأناشيد وأفلام تُسجّل أحداث القتال مع تحليلات شرعية، ونُقول عن علماء معتبرين تتعلق بأحكام عقدية وعملية، وألقيت من أولئك الشرعيين على شبابٍ غرّ خاوي الوفاضٍ من علم، أو فقه، أو تجربة، فإن التصديق الكامل، والإذعان والقبول المطلق لكل ما يقال، والاستعداد بعد ذلك للبذل والعطاء هو حصيلة هذا التأهيل!

وأخيراً، فإنه ليس بالضرورة أن يتحول كل واحدٍ حمل هذا الفكر إلى القتال، بل منهم -بالقطع- من تولى مسؤوليات مدنية في وظائف تتعلق بالتعليم والصحة والتجارة وغيرها.

٤- السجون والمعتقلات مصانع للغلو والعنف:

في غيابة السجون تتضافر عوامل من القهر والوَحدة والشكاية علاوةً على الفراغ، وقابلية الاستقطاب والتأثير بأدنى رعاية نفسية أو مادية، والذين يُحشرون داخل تلك الزنازين المظلمة تجمعهم مظالم تربط بينهم برباطٍ نفسيٍّ ما، فإذا وُجد بينهم من يحمل فكرة العنف أو الغلو، فإنه يسهل عليه جداً أن يسوّقها ويروّجها في هذا المناخ!

(١) تنظيم الدولة الإسلامية.. إدارة التوحش، السفير عبد الله حمد الأزرق (ص ٦٢).

وكما أن الدعوة إلى الله تلقى في السجون قبولاً، وتحصد أتباعاً - كثير ممن دخل تلك السجون اهتدى فيها إلى الله، وحافظ على الصلاة، وحفظ كتاب الله - فكذلك بعض هؤلاء أصاح سمعه لمن جنّده وضمّه لفريق الغلاة!

وربما تكون هداية السجين الجنائي غير المتدين على يد السجين السياسي المنتسب للغلو أو العنف، فيدخل باب التوبة والهداية من طريق الغلو أو التطرف.

وبخصوص غلاة الجهاد، فإن مجموعات من هؤلاء المنتسبين لتنظيمات الغلو إنما انضموا من خلال علاقات السجون، وقد عُرف هذا في السجون العراقية والسورية بكثرة، كما عرف في السجون المصرية والليبية أيضاً.

ولا يغيب عن الذاكرة أن البغدادي وعدداً من قيادات تنظيمه - فيما بعد - كانوا في سجون العراق، كما كان شكري مصطفى في سجون مصر، وكذا كان أبو محمد الجولاني في سجون سوريا، وتعود نسبة كبيرة من أتباعه - فيما بعد - إلى سجن صندنايا بسوريا، وكانوا قد مثلوا نسبة (٦٠٪) من مقاتلي سوريا في فترة ما، وكثير من هؤلاء خرج بعفو رئاسي في عام (٢٠١١م)!

وهذا بمجرد يلقى بظلال من الشكوك حول ضلوع تلك المخابرات في العراق وسوريا وغيرها في صناعة ما جرى في بلاد الشام والعراق من أحداث!

ولقد أكد أثر السجون في إيجاد التطرف قائد معسكر: (بوكا) الذي سُجن فيه البغدادي بالعراق؛ حيث قال: «إِنْ سَجَنَ أَرْبَعَةَ وَعَشْرِينَ أَلْفًا فِي مَعْسَكَر (بوكا) مِنْ بَيْنِهِمْ قِيَادَاتِ الْقَاعِدَةِ، وَالضَّبَاطُ الْبَعْثِيِّينَ، وَمَدْنِيِّينَ أَبْرِيَاءَ - كَانَ بِمِثَابَةِ

طنجرة ضغط للتطرف»، وقال: «إنه خلال فترة سجنهم في معسكر (بوكا) خطط تسعة من قيادات القاعدة، ووضعوا تفاصيل إقامة الدولة الإسلامية»^(١).

وكما وُجدت بذور تطرف عسكري وجهادي، فقد وُجدت بذور اعتدال عسكري وجهادي في تلك المعتقلات؛ إذ إن قائد جيش الإسلام زهران علوش، وقائد أحرار الشام حسان عبود، وقائد صقور الشام عيسى الشيخ كانوا جميعاً في سجن (صدنايا)، وخرجوا منه -أيضاً- عام (٢٠١١م)، وكلُّهم يعودون إلى مدارس علمية وسلفية، وجميعهم استشهد في أوّل غارات التحالف الغربي، ما يعني أن القضاء على السنة المعتدلين كان هو الهدف الأول!!

والخلاصة: أن السجون والمعتقلات سلاح ذو حدين؛ فقد تُساق الهداية من خلالها لمن كان بعيداً عنها، وقد تساق الفتنة أو الغواية لمن كان قريباً منها!

٥- الإعلام الموجه والجديد:

مهما قيل عن أثر الإعلام الموجه والجديد عبر ما سمي بثورة وسائل التواصل المتعددة؛ فإن الإحاطة بآثار هذا الإعلام الجديد، وما سترتب عليه غير ممكنة!

وإن مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي قد شهد -وبالتحديد في العالم العربي- صدًى لتلك الثورة في عالم الاتصال والإعلام في الغرب. ففي عام (٢٠٠١م) شهد العالم الإسلامي ميلاد ثلاث قنوات فضائية

(١) واشنطن بوست في ٤/١١/٢٠١٤م.

إسلامية، ومن ثمَّ بدأ التابع سريعاً في انتشار تلك القنوات، والبت من خلالها لموادَّ كثيرة ومتنوعة، وأصبحت سماء الإعلام اليوم تزدحم بمئات القنوات المتخصصة والموجهة لأغراض متعددة!

والأثر المباشر لتلك القنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية على المجتمعات، والمفاهيم، وأنماط الحياة والإنتاج، والثقافات والهويات والقيم - أكبر من أن يتجاهله أحد!

وأصبحت صناعة الرأي العام مسلَّمة للإعلام، وقبل عقدين من الزمان خرجت وسائل التواصل من (الفيس بوك، والتويتر، والواتساب) وغيرها لتمثل ثورة هائلة في الإعلام والإعلان والترويج؛ بحيث أصبح كل إنسان يحمل وسيلة للإعلام في يده، ينقل عن طريقها كلَّ حدث، ويوثق بها كلَّ موقف!

وقد لمس كل متابع لما يجري في عصر العولمة كيف يوظف الإعلام والثقافة في مجتمعات العالم الثالث لترسيخ التبعية الاقتصادية، والفكرية، والسياسية، علاوةً على العسكرية!

وفي خِصَمِّ هذه التطورات الهائلة في الاتصال، وُلد جيل من الشباب يشعر بكثير من الظلم والحيث الذي يمارسه الجيل السابق من قيادات الأمة في مختلف المجالات، ويشعر بمزيدٍ من الحنق والغضب على الأمم التي سعت لاستغلال خيرات بلادهم، وتكريس التبعية لهم!

وكانت هذه الوسائل مما يربط بين الشباب -على تباعد أقطارهم، واختلاف توجُّهاتهم- لكن حنقاً على الأنظمة السياسية التابعة، وعلى النظام العالمي المستعبد للإنسان في كل مكانٍ قد أصبح سيد الموقف.

ومن هنا اعتبرت وسائل التواصل من أخطر أسباب التغيير والإصلاح والإفساد والهدم على حد سواء!

ولا ينسى أحد أن (الفيس بوك) كان من أكبر وسائل إحداث الثورات المعاصرة، وإطلاق شرارتها الأولى!

وأن الإعلام الإلكتروني غدا أداة نشرٍ وتواصلٍ ظاهرٍ وخفيٍّ بالأسماء الصريحة والمستعارة لتوجيه الشباب، وترتيب كثير من الأعمال والفعاليات.

وقد اتخذ الغلو -أيضاً- موقعه بين وسائل التواصل، ومارس نشاطه، فكانت تلك الوسائل الإعلامية منابرٍ توجيهٍ أو تشويشٍ، وتغييرٍ أو تدميرٍ للفكر والفهم بشكلٍ لا يمكن للعين أن تخطئه!

وإذا كانت مواقعٌ كثيرةٌ متاحة ومباحة؛ فإن أخرى مُشفرة -أيضاً- لا يطلع عليها إلا المعنيون فقط! وهو ما يعرف باسم: الفضاء الداكن (Dark Space).

وعبر تلك الوسائل والأدوات مُورست أنشطة التجنيد كافة، ودورات الإقناع الصوتية والمرئية، وتُبدلت ملايين الرسائل النصية والحوارات، وشُوهدت مئات آلاف المقاطع، وسُهلّت انتقالات الأفراد والمجموعات من خلال حساباتٍ وهمية، وأخرى مخفية، وقد انضم عددٌ من الشباب الغربي -خاصةً- عبر تلك المنصات الإلكترونية.

ولقد ساعد على ذلك تملكُ ناصية التقنية الجديدة من قبل عددٍ من الشباب المتخصص في الإعلام الرقمي وتقنية المعلومات، كما أنشئت وحدات للإنتاج الإعلامي، وحُققت نجاحات في صناعة الأفلام، لا سيما تلك المقاطع التي

تضمنت حرقاً وتعريقاً وذبحاً بالسكين، وغير ذلك من المقاطع شديدة التأثير، وشديدة الجودة في آنٍ واحدٍ!

وعليه، فإن عددًا من الباحثين من مؤسسات: (بروكينجز)، و(هيريتيج)، وغيرها يرى أن تنظيم الدولة الإسلامية قد استطاع أن يجنّد شهرًا ألف مقاتل من سوريا والعراق ومن دول كثيرة؛ بحيث أصبحت آلة الإعلام الجديد تدار من خلال جيل من الشباب الثوري الذي يحسن استخدام الوسائط الإعلامية الحديثة بما يزيد التعاطف، ومن ثمّ تجنيد من ييدي هذا التعاطف^(١)!

وقد صرّح باحثون أن تنظيم الدولة تمكّن من اجتذاب نحو ثلاثين ألف مقاتل عربي عن طريق الإنترنت ومنصات التواصل.

وعلى صعيدٍ آخر: فإن الإعلام الغربي الموجّه يمارس نوعاً من التهيئة للغلو، وردود الفعل العنيف بسبب من التشويه المتعمّد للمسلمين؛ سواء في بلاد العرب أو في بلاد الغرب، مما يشحن النفوس بشحنةٍ من الكراهية التي تدفع للانتقام بتبني الغلو، وردّ الفعل العنيف.

ففي الكتاب الذي يحمل عنوان: (عرب السينما الأشرار.. كيف تُشوّه هوليوود شعباً؟!) يؤكد (جاك شاهين) أن صناعة السينما العالمية اليوم تُظهر العرب مغايرين للغرب وخطرين، وتُظهرهم بأنهم عدوُّ الجمهور الأول!

وذلك في دراسة للأعمال المنتجة من عام (١٩٨٦م) حتى (٢٠٠١م)، فهم متوحشون لا قلوب لهم، ويعشقون ترويع الغرب المتحضر!

(١) تنظيم الدولة الإسلامية (ص ١٢٥).

وأما الإسلام، فهو دين الإرهاب واضطهاد المرأة، وبحسب (شاهين): أن تكون عريباً، فإن ذلك يعني أنك مسلم إرهابي^(١).

٦- تغيب العلماء ودعاة الوسطية والاعتدال:

حين تُحارب دولة ما الدينَ الوسطيَّ بتبني العلمانية، وبمهاجمة رموز الاعتدال من علماء ودعاة الإسلام في التيار الإسلامي السني، وحين تعتمد الدولة إقصاء هذه الجماعات والشخصيات المعروفة بسماحتها ووسطيتها، وتسعى لتهميش دورها وأثرها في التوجيه بحيث يفقد الناس المرجعية العلمية؛ بل تتحول تلك المرجعيات إلى شخصيات مهاجرة تاركة لأوطانها، أو مسجونة معتقلة بسبب من وسطيتها؛ فإن النتيجة الحتمية: أن ينشأ شباب مُجهَّلون بدينهم، قابلون للطرفية نحو التسبب والانفلات، أو نحو الغلو والعنف! وهذه نتيجة مباشرة لهذه الممارسات التي غابت العلماء والدعاة، وأقصتهم عن دائرة التأثير والتوجيه.

وهكذا، فإنَّ تأجيج الخصومة بين الحكومات والتيار الإسلامي السني لن يخدم استقراراً، وإنما هو وسيلة مباشرة لاستمرار موجات الغلو!

ومن الكيد الذي يوجه للمجتمع: تشويه ومحاربة المؤسسات الدينية الرسمية، وإضعافها إن هي أظهرت إقراراً أو تقديرًا لمواقف أولئك الشباب في بعض ما يطالبون به من إصلاح أو إنكارٍ للمنكرات؛ بما يُفضي إلى إضعاف مؤسسات المجتمع في حراسة ومدافعة الشبهات، وتحصين وحماية الشباب.

(١) صورة الإسلام والمسلمين في الغرب، أحمد الراوي (ص ١٥)، نقلاً عن:

Shaheen, Jack, Reel Bad Arabs Olive Branch Press, NewYork.

وإذا تحوّلت المؤسسات الدينية إلى جهات مُسيّسة تُحقق أهداف السلطة - جارت أو عدلت، أصابت أو أخطأت - فإن مصداقيتها فيما تقوم به تجاه من انحرف فكره سوف تذهب أدراج الرياح!

ومما يزيد الطين بلة: هجومُ الغلاة على العلماء كافة، تارةً بسبب غيابهم، وتارةً بسبب سكوتهم!

ولا امتراء في أن إحجام كثير من العلماء عن الخوض في غمار مسائل شائكة من مسائل السياسة الشرعية في الظروف الراهنة كان سبباً في إقدام وجرأة من لا أهلية له، بل ارتفعت دعاوى بعض الجهلة بالاجتهاد المطلق، واجترأوا على دماء معصومة، وأعراض مصونة، وأموال محرمة!

وكُسِرَ حاجز الهيبة من الحرمات بعد أن كُسرت هيبة العلماء؛ بل وتجاوز البلاء إلى أن قال الغلاة المعاصرون في حق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: هم رجال، ونحن رجال!

ثانياً: الوسائل والأدوات غير المباشرة:

١- تفشي داء الافتراق والتدابير في العمل الإسلامي:

أهل الإسلام والدعوة دعاة اجتماع وألفة، لا تدابر وفرقة، إلا أن واقع هذه التجمعات -من أسفٍ- ولعوامل عديدة لا ينبئ بخير! ذلك أن فقه الوحدة والائتلاف غائب في غمرة ما بينها من الخلاف إلا ما قلّ وندر! وبحيث لا تفريق بين خلاف التنوع والخلاف السائغ من جهة، ولا خلاف التضاد وغير السائغ من جهة أخرى!

وقد انضاف إلى هذا الخلل العلمي تعصب للرأي، وتمحور حول الاجتهاديات، مع تراشق بالاتهامات، واتهام للنيات، وذلك في وقت تشتد فيه هجمات الأعداء موحدة من كل حدب وصوب!

وإذا وقع نوع من ضعف العلم التأصيلي والفهم الأصولي، فإنه يورث خللاً في إصدار الأحكام وترتيب الأولويات، ولا سيما حال القلّة والاستضعاف!

ومن ثمّ يصاب بعض الشباب بالإحباط الذي قد يدفع تارةً نحو محاولة الحسم بالغلو، والإفراط، والقول الواحد، وفرض الرأي بالقوة، وتارةً نحو التسبّب، والتفريط، والتهاون نظراً لوجود الخلاف!

ومع اتفاق الجميع على حرب العلمانية بصورها كافة، إلا أنهم -وبسبب من اختلافهم وتدابيرهم وتعصبهم لرايات أو زعامات- يفضل بعضهم مُهادنتها -بل ومُحالفتها- على مُهادنة ومُحالفّة إخوانه الذين اختلف معهم في أمرٍ اجتهاديّ!

وهذا يدل على ضحالة علم، وانحراف عملٍ في جانب السياسة الشرعية، وإدارة المواقف الدعوية! والأمثلة على ذلك الخلل الجلل أكثر من أن تحصى!

وبسبب ذلك أعرض كثيرون عن العمل الدعوي والعلمي السلمي إلى عمل عسكري من غير رشد ولا تودة! مع نفرة من التيسير، وجنوح نحو التعسير، وذلك بعد اهتزاز الثقة من القواعد في القيادات، وهو أمر أصبح لافتاً للأنظار، وبسببه وقعت انشقاقيات وانشطارات، وتفاقت انقسامات داخل الكيان الدعوي الواحد.

وأخيراً، فإنه بعد موجة الثورات، وما تلاها من انكسارات وتدافع للاتهامات

بسبب ما وقع من فشل واختلافات - انحرفت مجموعات وانفصلت عن كياناتها لتلحق بركب العمل العنيف؛ كفرًا منها بالسلمية التي أوردتهم موارد لا مصادر لها! كما انتقلت مجموعات أخرى إلى حافة الانفلات من الإسلام نفسه، والخروج من عباءته.

٢- ضغط الاستضعاف الذي تعيشه الأمة:

الاستضعاف حالة تقابل التمكين، وهو حاصل اليوم في الدنيا والدين، فأما الدين فإن إقامته على وجهه اليوم أمر متعذر أو متعسر بسبب من تسلط عدو كافر، أو سلطان جائر!

وعن الاستضعاف في الدين تنشأ الفتنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

والاستضعاف قد يكون كلياً يشمل معظم شعائر الدين؛ فيدعو أهله إلى الاستخفاء والدخول في سرايب السرية، كما حصل في الجمهوريات الإسلامية تحت الاحتلال الشيوعي، ومثله حصل من قبل لمسلمي الأندلس إبّان محاكم التفتيش!

وهذه حال قد وقعت قديماً وحديثاً، كما قال تعالى: ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَدْخِجُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَحِيءُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وقد يكون الاستضعاف جزئياً، وهو ما يتناول بعض الشعائر بالمنع والطمس والمحو، وهو حاصل اليوم في فلسطين المحتلة، وفيما غلب عليه الرفض، والنصيرية، والعلمانية من حكم بلاد المسلمين.

والاستضعاف كما يطال الفرد والطائفة، يطال الدولة والأمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والاستضعاف الدنيوي يتناول العجز عن تحصيل أسباب القوة المادية، بما يشمل صناعة الغذاء والدواء والسلاح، وتملك ناصية التقنية التي تمثل جوهر القوة المادية اليوم.

والواقع ليس بحاجة إلى بيانٍ عن هذا الاستضعاف الذي يحمل الأمة على استجداء طعامها وسلاحها ودوائها من أعدائها! بل آل الأمر إلى استجداء أنظمة الحكم لبقائها ودوامها من أعدائها، مع المسارعة فيهم، والتسليم لأحكامهم وإملاءاتهم في المسلمين!

وهذا الواقع المهين هو ما يحمل كثيراً من الشباب على أن يبحث عن عزته في مقاومة سلطان جائر على بني أمته، خانع لأعداء ملته، وهو ما يدعوه لاستعجال قتالٍ مع أعداء دينه، لم يتهيأ له بعُدته، ولا حصلت له أسباب نصرته! وفي ظل هذا الاستضعاف في الدين والدنيا ينشأ قهرٌ وكبتٌ، ويتولد إحباطٌ لتسبب جميعاً في حالٍ من الكراهية وطلب إدراك الثأر، والرغبة في الانتقام، وربما يبدأ ذلك عند بعضهم بالعدو الأدنى، فيعمل آلة القتل -بعد منهجية التكفير- في أقرب الناس إليه من والدٍ وولدٍ، وشيخٍ وداعيةٍ، وطائفةٍ مواليةٍ! وذلك من أخطر أدوات اختطاف الإسلام وأهله نحو ما لا يُمْتُ إلى الدين بِصِلَةٍ!

هذه هي الحقيقة، لا كما يصورها (هنتنجتون) بقوله: «نزعة المسلمين الحرية، وولعهم بالقتال والعنف، حقائقٌ في أواخر القرن العشرين، ليس بوسع

المسلمين أو غيرهم إنكارها»^(١).

إن الكراهية التي يصمون بها المسلمين هم أسبابها في الحقيقة؛ ولهذا قال (جون أسبوزيتو): «إن مفهوم الخوف من الإسلام شأنه شأن معاداة السامية، لا يمكن استئصاله بسهولة، أو في وقت قريب، كما أنه لا يعدُّ مشكلة المسلمين وحدهم، بل يعدُّ مشكلتنا نحن، ويجب على الحكومات وصنّاع السياسات، ووسائل الإعلام، والمؤسسات التعليمية، ومديري الشركات، ورجال الدين أن يلعبوا دورًا مهمًّا في تغيير مجتمعاتنا، والتأثير على مواطنينا، وسياساتنا بهدف كبح الأصوات المنادية بالكراهية، والنظريات الإقصائية»^(٢).

٣- ردّة الفعل على الصحوات:

في ١ مايو (٢٠٠٣م) أعلن الرئيس (بوش) من على بارجة حربية: «أن المهمة أُنجزت»، غير أنه في ذات اليوم بدأت مقاومة قواته بقنابل يدوية أصابت سبعة من جنوده في قاعدتهم بالفلوجة من أرض العراق!

وما هي إلا أسابيع وأشهر معدودة حتى اصطلى الأمريكان بنار المقاومة العراقية التي تناسلت فصائلها وتكاثرت، وإذا بالأمريكان يبدو فشلهم، وتظهر هزيمتهم.

وفي عام (٢٠٠٤م) التقت إرادتان خبيثتان من الأمريكان من جهة، ومن بعض قيادات القبائل السنية من جهة أخرى على قتال تلك الفصائل من المقاومة السنية المستقلة!

(١) صراع الحضارات، لهنتنجتون (ص ٢٥٨).

(٢) من تمهيد لكتاب: صناعة الخوف من الإسلام، تأليف: نايفان لين، ترجمة: أنس مكتبي، دار جامعة الملك سعود للنشر.

وتشكّلت تنظيمات الصحوات من تلك القبائل السنية على الأرض العراقية لقتال تلك الفصائل، مدفوعة برغبة زعماء القبائل الذين أغرتهم الدولارات التي انهمرت بالملايين، ولإدراك ثأرٍ من بعض الفصائل التي قتلت من أبناء القبائل المتعاونين مع الاحتلال، وانفصلت مجموعات من تلك الفصائل لأسباب شخصية، أو لمحن وفتن وإغراء ليلتحقوا بالصحوات! ولقتال السنية والبعثية جميعاً!

ونشب قتال بين مجموعات الجهاد وصحوات القبائل المدعومة أمريكياً، فاستهدفت تنظيم القاعدة وسائر التكوينات الجهادية، وبحلول عام (٢٠٠٧م) كانت الرمادي والفلوجة وغيرها خاليةً من تلك الفصائل الجهادية والمقاومة.

وانخفضت العمليات ضد الأمريكان بنسبة (٩٠٪)، وهذا ما اعتبره الأمريكان نجاحاً باهراً، وهو ما أغراهم بفكرة صناعة الغلو لاحقاً على أرض العراق لقتال الفصائل الجهادية نيابةً عنهم!

كانت المصالح الذاتية لشيوخ القبائل الذين احترقوا تهريب النفط ومشتقاته من مصفاة (بيجي)- هي الدافع الأساسي لحرب الفصائل، مع ما وقع من القاعدة من قتل لبعض شيوخ قبيلة البوعيسى والبوذياب.

فلما تكشّفت الأمور، وتبدلت المصالح- بدأت حالة من الهجرة العكسية مرة أخرى من صفوف الصحوات إلى صفوف القاعدة والمقاومين، وبخداع الأمريكان لشيوخ القبائل وتسليمهم السلطة للشيعنة في (٢٠٠٩م)، وبداية انسحابهم حصل تحولٌ هائل من الصحوات، مع ردة فعل عنيفة ضد الأمريكان والشيعنة، ورؤوس القبائل في وقتٍ واحد!

ولما رفضت حكومة المالكي أن تسمح للشيخ بالسيطرة على الأمن في مناطقهم، أو التمتع بسلطات إدارية كما وعدوا من الأمريكان، اعتبروا أنفسهم قد أُلقي بهم في سلال المهملات، فكانت الفرصة مواتيةً لاجتذاب الشباب الضائع الذين قُدِّروا بعشرات الآلاف نحو تنظيمات القاعدة وغيرها، وكان هذا إيذاناً بنشأة الغلو الذي مثله تنظيم الدولة لاحقاً، وعن قريبٍ.

ولهذا -أيضاً- فإن المواقف النفسية المتأزمة جرّاء التجارب العملية الفاشلة قد أحييت مواقف علمية غالية اعتبرت كل تعامل مع الدولة هناك كفرًا، أو يقترب من الكفر!

وهذا كان سبباً خاصاً لنشوء صحوات العراق، الأمر الذي تعلق مباشرة بالغلو والعنف هناك.

٤- الحرب على الدين ومظاهره:

إن الحرب على الدين ومظاهره مرصودة منذ عقود، لكنها اتخذت وتيرةً أشدَّ بعد الحادي عشر من سبتمبر، ثم تحولت إلى مظاهرٍ أخرج وأشدَّ بُعيد ثورات الربيع العربي؛ إذ اعتبر الصعود السياسي للتيار الإسلامي -بمختلف تشكيلاته- بمثابة ناقوس خطر يدق في الشرق والغرب معاً!

فإذا بالترويج للإلحاد في وسائل الإعلام يبلغ مداه، والهجوم على ثوابت الإسلام التشريعية ومصادره الكلية يصل أقصاه، ومكافحة مظاهر الدين العامة والفطرية والعرفية تشتد وتحتد!

وبالمقابل تُروَّج الإباحية والشهوات، ويُدافع عن الشذوذ والانفلات، ويضيق على المساجد ورؤاها، وتؤخذ خطبة الجمعة لضمان عدم الخروج

عن النص، وتقلص المواد الدينية النافعة في الإعلام، وتغير المناهج الدينية في المدارس، وتوجه المؤتمرات الشرعية في الكليات والجامعات في اتجاهات سياسية، وتوظف الفرق الكلامية والاتجاهات العقلانية الاعتزالية والأشعرية والطرق الصوفية الغالية في حرب الدعوات الإسلامية، ويفسح لها في القنوات الفضائية، وتدعم حركات التشيع للحد من المد السني، وتروج الانحرافات العقدية - كالسحر والشعوذة والخرافة - عبر وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي المختلفة، وتزاحم الاتحادات والروابط العلمية المستقلة بأخرى مصنوعة ومزيفة، ويضيق على الجمعيات الدينية والاجتماعية المؤثرة، وتسن القوانين في هذا الصدد لمزيد من تقليص المد المجتمعي، ومحاربة مؤسسات المجتمع لحساب المؤسسات المسيسة في المجتمع!

حتى الأقليات المسلمة في الغرب عرفت التضيق والاتهام والتشويه وصناعة الإسلاموفوبيا والاتهام، وكل ما سبق كما يصب في صرف الشباب والكبار عن التدين بكل سبيل، وإثارة البلبال في العقول، وتأجيج الشهوات المستكنة في النفوس، إلا أنه يدعو - أيضاً - طائفة إلى الغلو والتطرف في العلم والعمل، فإن كان هؤلاء المستعدون للغلو في بلد مسلم مالوا إلى التكفير، واستباحوا التفجير، وإن كانوا في بلد غير مسلم استباحوا الدماء والأموال والأعراض!

أما ذكر الشواهد والدلائل والأمثلة والمقولات والبرامج العملية، فأمر أكبر من الإحاطة به في هذا الاختصار والتنبيه.

وعند الحديث عن رؤى وأسباب مواجهة اختطاف الإسلام ودعواته المعاصرة نحو الغلو والعنف؛ فلا بد من إدراك ما يعترض ذلك من معوقات وعقبات تتعلق

- أحياناً- بمنهجية التصدي للغلو بعد تحديده تحديداً دقيقاً، وأحياناً تتعلق بإدراك واقع ومقولات وممارسات المختطفة عقولهم، وأحياناً تكون متعلقة بصناعة داخلية للغلو وأسبابه، أو تشجيع واستثمار خارجي للغلو ورموزه، وتفصيل ذلك فيما يأتي من صفحات.



المَبْحَثُ الثَّامِنُ

رؤى وأسباب لمواجهة محاولة الاختطاف

هناك اعتبارات يجب أخذها في الحسبان قبل الدخول إلى مواجهة الغلو، واختطاف الحركة الإسلامية نحوه، ومن بين هذه الاعتبارات ما يلي:

أولاً: تحرير المرجعية في الحكم على الغلو والتطرف:

من أكبر الإشكاليات: تحرير معالم ومواطن الغلو العلمي والعملية المعاصر، بحيث لا يختلف على كون هذا الانحراف -هنا أو هناك- غلوًا منكراً يجب إنكاره، ومن هنا يتحتم إدراك أوصاف الغلو ومحدداته وحال أهله؛ حتى يتأتى حكم بأن هذه الصورة أو تلك من الغلو.

ومن الأهمية بمكان أيضاً: معرفة الفرق بين الغلو الكلي والجزئي، والاعتقادي والعملية.

ومن أخطر الإشكالات في هذا الصدد: اعتبار اختيار مدرسة علمية ما، أو ما تبنته دعوة سنية ما من اجتهادات فقهية مذهبية أو حركية معياراً للوسطية، وما نابذته من الاجتهادات الحركية الشورية أو الفقهية الظنية معياراً للغلو أو للطرفية!

كما يتعيّن التيقظ -أيضاً- إلى أن الأخذ بالرأي الأشد لا يعدُّ بذاته دليلاً على الغلو، كما أن الأخذ بالرأي الأيسر لا يكون دليلاً على التفريط أو التساهل!

كما أن من الانحراف الذي هو من الغلو: المبالغة في رُتب الأعمال، فمن نَزَلَ السُّنة منزلة الواجب فقد غلا وابتدع، ومن نَزَلَ الواجب منزلة السُّنة فقد فرَّط وانحرف.

ومن الانحراف: اعتبار المسألة الاجتهادية الظنية في الشريعة مسألة قطعية، لا يُعرف فيها إلا قول واحد، ولا يُسمع فيها إلا رأي واحد! والإنكار على صاحب القول الاجتهادي الآخر، ورميه بالتهم والمنكرات.

فلا يسوغ بحال اعتبار ما شاع في زمان، أو مكان، أو لدى طائفة من أهل السُّنة والدعوة من اختيارات اجتهادية معياراً للوسطية، وما خالفه خلافاً سائغاً ملتحقاً بالغلو أو بالطرفية!

والحجة المعتبرة في ذلك المعيار: فقه الأئمة الأربعة المعتبرين من أهل السُّنة، وما كان عليه القرون الثلاثة الأوّل المفضّلة، ومن سار على دربهم من أهل العلم والفهم.

وغنيّ عن البيان أن الوسطية والطرفية لا يُستمد مفهوماً من حزب سياسي حاكم، ولا من رؤية ذي سلطان ظالم، فضلاً عما يفرضه الغرب من مفاهيم يسعى لعولمتها، وأفكار يدعو لاعتقادها، مما يتعارض مع عقيدة وتاريخ وثقافة أهل الإسلام.

ثانياً: التقصير في فهم قول المعاصرين من كلامهم أو كتبهم أنفسهم:

الغلاة المعاصرون كالغلاة المتقدمين، فرّقوا وأحزاب تتشظى وتنشطر، وتجتمع وتفترق، وهذا حاصل الآن، كما هو حاصل في كل زمان!

ومن أكبر الأخطاء: عدم التفريق بين الأقوال المنسوبة لطوائف الغلاة وجماعات الأهواء؛ ذلك أن الانحرافات متفاوتة، فغلُّو جماعة التكفير والهجرة - مثلاً - ليس كغلِّو جماعة التوقف والتبيين، وما قد يؤخذ على من يُسمَّون: (القطبيين) دون ما يؤخذ على الطائفتين السابقتين في باب الأسماء والأحكام، والحكم على الأشخاص والمجتمعات والدول، والتسوية بين الجميع في المقالات والأحكام ظلمٌ وانحرافٌ لا يُعالج ما عند القوم من غلوٍّ أو تطرف!

كما أن ما عند المجموعات الجهادية المعاصرة من غلوٍّ أو عنفٍ في باب الاجترار على الأحكام، أو الدماء، والأموال، والأعراض - جدُّ متفاوتٍ، والتسوية اليوم بين ما عند تنظيم القاعدة - مثلاً - وتنظيم الدولة الإسلامية من مقالات وتصرفات غالية - أمرٌ يجافي الواقع، ويصادم المتقرر من تأصيلات الفريقين في منشوراتهم وفتاوى شيوخهم، وممارسة قياداتهم، وإنكار بعضهم على بعض!

وغير خافٍ أن مفهوم الجماعة، والبيعة، والإمارة عند جماعة التكفير والهجرة متفاوت مع مفهومها عند جماعات الجهاد المعاصرة، وشديد الاختلاف عن مفهوم الجماعة والإمارة لدى جماعات الدعوة، وإن وُجد عند كلٍّ ما قد يؤخذ عليه من أخطاء تدقُّ، وقد تجلُّ!

ثالثاً: تحرير الفوارق بين ما في الكتب من مقولات الفرق، وما في الواقع من تطور:

من الإشكالات المتكررة: تنزيل ما في الكتب من أحكام على معاصرين، من غير إدراك جيد لمدى التفاوت بين ما في الكتب، وما في الواقع!

وفرقٌ شاسعٌ بين غلوِّ له ما يدفع إليه من أسباب في واقع مجتمعاتنا المعاصرة التي تزخر بتناقضات وأوضاع شاذة، وبين مجتمعات المسلمين الأولى التي عاش فيها خير القرون؛ بحيث قد يقال: إن عامة غلاة ذلك الزمان الأول قومٌ غير أسوياء بتركيباتهم النفسية والسلوكية، وأنهم قد اختاروا الانحراف عن الجادة، فلم يتواصلوا مع أهل العلم على كثرتهم وجلالتهم في الزمن الأول!

أما عند النظر إلى غلاة هذا الزمان، فلا بد من اعتبارٍ لحالة المجتمعات اليوم من تحديات وانحرافات، وعنف وقهر، وفساد واستبداد، واستلاب حضاري واقتصادي، وجهالة عامة؛ بل وسعي لدفع المجتمعات وشباب المسلمين - خاصة- إلى مسالك الغلو والعنف بطرق مباشرة، وأخرى غير مباشرة، وهذا كله يقوّي جانب رد الفعل الغالي للطرفية الموجودة اليوم سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

ولذلك، فإنَّ المسارعة إلى وصم غلاة هذا الزمان باسم الخوارج، أو المرجئة، أو الباطنية، أو ما شابه- يحتاج إلى كثيرٍ من التروّي والتأني؛ بل إن نسبة بعض المعاصرين إلى بعض الفرق المعاصرة -كالقومية، أو البعثية، أو القاديانية، أو العلمانية- يحتاج أيضًا إلى مزيد تريُّث وتحقيق!

وهنا يتأكد إدراك الفوارق العلمية والفكرية والنفسية والسلوكية بين أصناف الغلاة، والتفريق في التعامل مع كلٍّ بحسب معتقداته ومسالكة العملية.

ومما تَمَسُّ الحاجة إلى بيانه: أنه لا يلزم من انتساب بعضهم إلى فرقة غالية أن يُجَرَّد من كل وصفٍ مقبول إن كان متصفًا به، وأن يُنسب إلى كل وصفٍ مذموم وإن لم يكن فيه! فلو وَصَفَ أحدهم الخوارج اليوم -مثلًا- بالجبين

والخور، كان كاذبًا! وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

كما لا يقال بأن من شارك في العمل السياسي في ظل العلمانية، أو الديموقراطية - وهو من الدعاة السعاة للتغيير، ومن المنادين بتحكيم الشريعة، وولاؤه مصروف لأهل الإسلام- لا يقال لمثله: إنه كافر؛ لممارسته للعمل السياسي على قاعدة الديموقراطية! كيف وهو من العاملين الداعين لتحكيم الشريعة، المنافحين عنها؟! وقد دخل في هذا الغمار طوائف من الدعاة السلفيين وغيرهم وفقًا لفتاوى شرعية من كبار علماء الزمان، وليس منهم أحد متدين بقبول الديموقراطية في شقها الفلسفي الكفري!

وهكذا، لا سبيل لإجراء أحكام بالتكفير، أو التفسيق، أو النفاق، والمجازفة بها والحال هذه!

وفي ساحة الجهاد المعاصر حيث لم تتحد الراية، ولم تتحقق بعدُ الولاية، فإن المسارعة إلى إجراء أحكام نهائية في باب السياسة الشرعية لا يخلو من مجازفةٍ وخطأٍ يُنكر، ولا يُقرُّ عليه أهله، وعليه: فإن من الغلو أن تُنزل مجموعة جهادية نفسها منزلة الدولة قبل استحقاقها لمقومات الدولة، ولا يحق لها أن تتعامل مع من لم يدخل في كيانها تعاملها مع الخارجين عن الإمام الشرعي الممكن، إلى آخر ما يمكن رصده من انحرافات وأخطاء عند بعض المجموعات، لكنَّ وَصَمَ الجهاد السني بكل فصائله وطوائفه بالغلو - غفلةً عن الواقع ونوازله ومشاكله؛ بل غفلة عن العدل، وجور في الحكم!

ولو قُدِّرَ أنه سَلِمَتِ الأعمال الدعوية من أخطاء ومخالفات، فليسلم الجهاد! والأخطاء حقها الإنكار والإعذار من غير غلوٍّ أو تفريطٍ في وصف أهلها بالغلو!

رابعاً: الغفلة عن نوازل تتضمن انحرافات مؤثرة في واقع الأمة:

تموج الساحة المحلية والإقليمية والدولية بنوازل كبيرة، وعنها قد تنشأ انحرافات خطيرة، والغفلة عن تلك النوازل وما تسببه من إشكالات يؤثر سلباً في الاحتساب على الغلو والغلاة في الواقع المعاصر.

فإذا اغتصبت السلطة في بلدٍ سنِّيٍّ من قبل طائفة رافضية، فأعلنت ولايتها، وسعت لفرض سيطرتها بالقوة العسكرية الغاشمة، فلا يقال: إن من نابذهم وقتلهم خارجٌ على الإمام، أو مستييح للدماء بغير برهان!

ولا يقال عن حكم كهذا: إنه حكمٌ حاكمٍ متغلبٍ يجب الرضوخ له؛ إذ أقلُّ ما في الباب أن تكون المسألة اجتهاديةً خلافيةً! فإن الحكم العلماني الديكتاتوري ليس حكماً شرعياً يُرَضَّخ اختياراً للمتغلب وفقاً له! ومثله الحكم الطائفي الرافضي، أو الصفوي الفارسي!

وإذا انشطرت دولة إلى قسمين، اكتسب الأول مشروعيةً شعبيةً ودوليةً بأجهزة مكتملة للحكم، ثم استقوى القسم الثاني بكل دول الغرب وأوليائها من العرب لإسقاط القسم مكتمل الشرعية الشعبية والدولية، ودارت بينهما رحى الحرب، ولم ينتصر فيها أحد؛ فعندئذٍ لا سبيل للقطع والجزم بأن من خرج على هذا أو ذاك فقد تحقق فيه وصفُ الغلو بالخروج على حاكم شرعيٍّ ممكن.

خامساً: حصر الغلو في جانب دون آخر (المواجهة الجزئية):

من الخطأ البين اعتبار الغلو في جانب إجراء الأحكام بالتكفير أو استباحة الدماء فحسب؛ بل إن الغلو أوسع مدلولاً وشمولاً لجوانب أخرى في العقيدة؛ كالغلو في باب الولاء للجماعة الحزبية، أو البراء ممن لم يدخل في بيعة جزئية لجماعة حزبية مثلاً!

وكما وُجد الغلو في الخروج على ولاية الأمور، وُجد غلو في طاعتهم ولو في معصية، وبتزيين انحرافهم، ولو كان ظاهراً بينَ البطلان، وباعتبار كل إنكار عليهم بدعة، وكل تغيير لمنكر خروجاً عن السلطان! وتحويل الطاعة لولاية الأمر المنضبطة بموافقة الشرع إلى طاعة سلطانية كسروية!

كذلك يتطرق الغلو في أبواب أخرى من العقيدة؛ كالغلو في آل البيت - مثلاً - أو في بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ!

وهناك غلو في أبواب عملية؛ كالغلو في إيجاب التقليد على كل أحد، أو إيجاب الاجتهاد على كل أحد! وغلو في العبادة ورياضة النفس! وغلو آخر في سوء الظن والطعن بأهل العلم، ونسبتهم إلى الجبن تارةً، وإلى ممالأة الظلمة تارةً أخرى! وغلو في الأحكام بالميل دائماً إلى التشديد والتعسير، والتنفير من الرخص كافة، والإلزام بما لا يلزم شرعاً.

وهكذا تتنوع جوانب الغلو المعاصر التي يراد أن يُختطف إليها المجتمع المسلم، فإذا أضيف إلى هذا التنوع الغلو العلماني، والتطرف الليبرالي، وغلو فرقٍ منسوبة إلى التصوف، وفرقٍ أخرى منسوبة للتشيع؛ فإنه لا يمكن -بحال-

أن نختزل مقاومة الغلو في صورة واحدة مع إغضاء الطرف عن باقي الصور والتناقضات التي تتجلى في صفحة المجتمعات المعاصرة، والتي يسعى الأعداء إلى تبنيها جميعاً في الحرب على الإسلام السني المقاوم.

سادساً: ارتباط الحسبة على الغلو بسلطة ظالمة ومؤسسات دولة دون مؤسسات المجتمع:

الأصل أن مؤسسة الحسبة هي إحدى مؤسسات الدولة التي تنطلق من مبدأ مشروعية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعليه: فلا حرج أن تنظم ولاية الحسبة من قبل الحاكم بما لا يحولها إلى جهة مُسيَّسة لتحقيق أهداف خادمة لإرادة السلطة؛ سواء جارت أو عدلت، أصابت أو أخطأت!

ومن معوقات عمل تلك الأجهزة: فقدان مصداقيتها فيما تقوم به تجاه الغلاة حين لا تستطيع القيام بواجبها تجاه الولاة! وإن كان الميسور من الإنكار لا يسقط بالمعسور.

ومن هنا، ينبغي لهذه الولاية أن تتحرر من الدوران في فلك حاكم، أو ملك، أو أمير، وأن تنطلق في البلاد التي لا تنظمها فيها الدولة من سلطة الأمة والمجتمع التي كفلهما لها الشرع الحنيف، فهي أقوى من كل سلطة.

ومن نافلة القول: أنه يتعين على العلماء الصدعُ بالحق في إنكار منكرات الغلو، وإن كان الإنكار ليس قاصراً عليهم، بل للدعاة عمل، وعلى المفكرين واجب، وللإعلاميين مسئولية، وللمؤسسات العلمية والدعوية والثقافية مشاركة لا بد منها.

وينبغي أن تتكامل أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع أعمال المساجد، ووسائل الإعلام، ومعاهد التعليم، وعمل العلماء، وجماعات الدعوة، والمؤسسات الاقتصادية والسياسية على حدٍّ سواء.

ولا سبيل لذلك إلا بأن يسترد المجتمع عافيته أمام التغول الذي قد تمارسه الدولة المعاصرة اليوم، فكلما قوي المجتمع بمؤسساته العلمية والدعوية والثقافية، كان أقدر على الاحتساب على المنكرات كافة، وكانت الأمة أملك للسلطة التي بموجبها تولي وتعزل، وتأمّر وتنهى، وتواجه الحرب المعلنة عليها من خارجها وداخلها على حدٍّ سواء.

سابعاً: الوقية المصنوعة بين الأنظمة العربية والعمل الإسلامي:

لعل من أخطر الإشكاليات في هذا الصدد: ما تمكّن أعداء الإسلام من ترسيخه والتخويف منه، وذلك بإقناع عددٍ من الأنظمة والقيادات في الوطن العربي بأن التهديد الأكبر والعدو الأخطر هو هذه الدعوات والحركات الإصلاحية في بلاد الإسلام، والتي قد تُشكّل ألغاماً موقوتةً، أو طابوراً خامساً يسعى في تقويض تلك الأنظمة بكل سبيل.

ولا يعدم هؤلاء المغرضون أن يقدموا نماذج مصنوعةً من الغلو والغلاة بخطاب شديد الخطورة والفجاجة؛ وذلك للبرهنة على أن السبيل للحماية من العنف والغلو هو في مزيدٍ من الانفتاح والانبطاح معاً، مع الحرص على حيطة الأنظمة بسياسات عالٍ من أعداء الإسلام المخاصمين له!

وهذا بدوّره يُفضي إلى مزيدٍ من الاحتقان، ويرشح إلى دورات جديدة من

الغلو والعنف لدى الطرف المقابل، وبهذا تنتقل المعركة بين الأمة وأعدائها الحقيقيين إلى أن تكون بين مكونات الأمة ذاتها، بين حُكَّامها ومحكومياتها، وبين الأنظمة وشعوبها، وليكون القاتل والمقتول من المسلمين، وكلاهما خاسر! وهنا يبدو من الأهمية بحثُ وسائلٍ إيجابيةٍ تبعث على الطمأنينة، وتستلُّ الأوهام والظنون بشكل يساعد على الهدوء، وحلِّ الأزمات التي تعقدت!



المَبْحَثُ التَّاسِعُ

مسالك وطرائق لمواجهة اختطاف الدعوة الإسلامية

نحو الغلو والعنف

هناك العديد من المسالك والأسباب لمواجهة اختطاف الحركة الإسلامية نحو الغلو والعنف، وهذه المسالك والأسباب يمكن تقسيمها إلى مجموعتين: علمية نظرية، وعملية تنفيذية، وبيانها فيما يلي^(١):

المجموعة الأولى: المسالك والأسباب العلمية النظرية:

أولاً: تحرير مدونة الوسطية والاعتدال فيما وقع فيه الغلو:

إذا كان الغلو المعاصر قد تناول أبواباً متعددة من العقيدة في الأسماء والأحكام، وقضايا التكفير، واستباحة الدماء، والاستقلال بإعلان الخلافة، أو طلب البيعة العامة، وإيجابها على الأمة، وزعم القضاء على مشروعية كل الأعمال الجهادية غير المنضوية تحت راية بعينها؛ فإنه يلزم تبيان الأحكام الشرعية المتعلقة بالسياسة الشرعية، وأحكام إقامة الجهاد في الواقع المعاصر، وتوضيح حكم الجهاد حال شغور المكان عن إمام شرعي، وما يترتب على ذلك من نوازل، وبيان أحكام البيعة الجزئية، والبيعة العامة، وعوامل قيام الدولة واعتبارها شرعاً، وحدود

(١) يراجع: الاحتساب على الغلو المعاصر، للمؤلف.

الولاية الجزئية والعامة، وما يرتبط بها من الأحكام، مع توخي الإنصاف والحياد، ودعوة العلماء والمجتهدين والخبراء والمختصين لمناقشة تلك النوازل.

ثم الخروج ببيانٍ للأحكام مدلل، وتوضيح للمسائل معلل، وتقدير لحكم الانحرافات في هذا الشأن مبرهن؛ بحيث مَنْ كان ضلاله لأجل جهل غالب فإنه يرتفع، ومن كان انحرافه لأجل شبهات فإنها تمتنع، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيٍّ عن بينة!

ومن المهم في هذا الصدد: أن تصدر البيانات العلمية الشافية الوافية عن أهل العلم المعتبرين غير المُسيّسين، ولا المحسوبين على أنظمة علمانية أو ليبرالية.

ومن حق أهل الغلو المعاصر على أهل العلم في هذا الزمان: تحرير إجابات علمية مفصلة تستوفي الشبهات، وتستقصي الردود عليها شرعياً وواقعياً، فكرياً وسياسياً، اقتصادياً واجتماعياً.

وفي هذا الصدد يُقترح عمل مدونة تُفهرس فيها كل مسائل الغلو المعاصر مرتبةً على أبواب من العقيدة، وإجراء الأحكام، والموقف من الصحابة وآل البيت وغيرها، وأبواب السياسة الشرعية من الإمامة، والجهاد، والقضاء، وغيرها، وذلك تمهيداً للإجابة عليها بطريقة علمية جماعية من رجالات أهل السنة في لجنة متنوعة الأقطار والأمصار؛ لتمثل في النهاية كلمةً علمية عالمية مستقلة عن الحكومات القطرية.

وللإنصاف؛ فإن كلماتٍ ومقالاتٍ متعددة قد تناولت الردود على الغلاة، إلا أنها لم تكن جهوداً جماعية، كما أنها لم تستقصِ الإشكالات نقداً ورداً، ولم

تصدر إلا باسم أفراد متناثرين، وربما كان لبعضهم خصومة، أو مشاحة على الأرض مع هؤلاء أو أولئك، فكان سبباً للتشويش على تلك الردود.

ثانياً: فكُّ الاشتباك ورفع الالتباس بين المشروع والممنوع من الجهاد وقضاياها، ومسائل السياسة الشرعية:

كل غلوٍّ له تعلُّقٌ بالشرعية يستدل أصحابه عليه بدليل، أو شبهة دليل، أو ما فيه مستمسكٌ بطرف من أطراف أدلة الشرع المطهر! ومن ذلك: الجهاد، وهو عقيدة وشرعية ماضية إلى يوم القيامة، وله شرائط وأحكام، ولا يُتصور أن يصدر من العلماء إنكار لكل جهاد مشروع قام، أو يقوم! كما لا يُتصور أن يُنهي عن صواب الجهاد ومصالحه العظمى لأجل مفسدٍ أو مخالفاتٍ جزئية تقع فيه، كما لا يُنهي عن الدعوة، والأمر والنهي، وطلب العلم لمفسدٍ أو مخالفاتٍ جزئية تقع فيها.

فواجبٌ على علماء الأمة وأهل الحسبة فيها أن يبينوا الفرق بين المقبول والمردود من تلك الأعمال، والمشروع والممنوع من تصرفات السياسة الشرعية المعاصرة، وأثر دخول الغلو في ذلك كله.

ومن الملاحظ أنه منذ الجهاد الأفغاني الذي قام قبل نحو أربعين سنة والأمة تجاهد بصورة تجاوزت فيها الجيوش النظامية التابعة لحكومات، وقد وقع هذا في البوسنة والهرسك، والشيشان، وأفغانستان، وفلسطين، والعراق، وغيرها، وبسببٍ من ذلك وقعت نوازلٌ كثيرة، ومسائلٌ عديدةٌ وخطيرة، وإعراض العلماء عن بيان أحكام الله فيها مما لا تبرأ معه ذمة أهل العلم، ولا يحقق معنى الموالاة لجهاد أهل الإسلام والسُّنة.

فلو أن العلماء بادروا ببيان الأحكام، وسدّ أبواب الغلوّ في شأن الجهاد من قبل أن تقع الانحرافات، لكان أسلم لساحته، وأبعد عن محاولات بعضهم لإفساده بالغلو والتشدد.

ومع أن المعتزك مع تيار المغالاة والعنف، إلا أن بعض ما قد يروج له يحتاج إلى مراجعة وتبني؛ لما ثبت من أن جهات معادية للإسلام وأهله معنية بالدعايات المضللة، والمبالغات الكاذبة، وهذا معتزك واسع تعبث به مخبرات دول عدة معادية للسنة، أو معادية للإسلام والسنة معاً.

وهذا يقتضي ألا يؤاخذ أحدٌ إلا بما ثبت بحقه من انحرافات، ولا يشتغل بإنكار ما لم يتحقق من وجوده، وأن يُقدّم حسنُ الظن ما وُجد إليه سبيل مع أهل السنة.

ولا يخفى أن جهات صليبية وصهيونية ورافضية مستفيدة من تأجج الغلو في ربوع أهل السنة، بل وتصنعه وتدعمه من طُرفٍ خفيّ، وتُغري به من طرفٍ آخر؛ لتصنع على أرض الإسلام وفيه معركةً داخليةً.

وإن الواقع اليوم ليؤكد أن المعسكر الصليبي والصهيوني يتواصل مع فئات من غلاة الرافضة وأصحاب الطرق الخرافية دعماً وتقويةً، وإظهاراً لهم على أهل السنة في بلاد المسلمين!

وإن دعماً غربياً غير محدود تلقاه النظم الطائفية من نصيرية واثني عشرية؛ لتبقى قائمةً وحاكمةً في ربوع السنة، مؤججةً بذلك العنف والتطرف معاً.

ثالثاً: مراجعة مَنْ وما قد يدعم فكره ومواقفه الغلو بطريق أو بأخرى:

لا يمكن التملّص من مسئولية بعض أهل العلم وبعض المواقف والمؤلفات عن نشوء حالات الغلو، وإن لم تكن السبب الرئيس لوجوده وانتشاره، لكنّ

مراجعاتٍ علميةً وفكريةً ومنهجيةً يجب أن تأخذ مسارها، وأن تسلك سبيلها لتصحيح عبارة، أو حكم، أو موقف يدعم الغلو، وعند رجوع الشيخ، أو الداعية، أو الدعوة عن ذلك الموقف أو الحكم، فلا بد من إعلانه وإشاعته.

ولا يصلح للعالم والداعية أن يمتنع عن تصحيح موقف، أو حكم، أو إطلاق خوفًا على مكانته، أو حذرًا من سقوط جاهه عند أتباعه!

وبالمقابل، لا يَجْمُلُ بالعالم أو الداعية أن يترك الإنكار على الغلو؛ خوفًا من تجريحه من قِبَلِ الغلاة، أو تعديهم عليه؛ ذلك أن الاحتساب والإنكار هو جهاد العلماء الذين ينصحون لأمتهم، ويقولون الحق لا يخافون فيه لومة لائم!

ومن الأهمية بمكان مراجعة أهل العلم والدعوة الذين يمتنعون عن نقد الفكر الغالي والمتشدد بدعوى أن مفاصد الحسبة أرجح من مفاصد السكوت، أو بزعم أن الإنكار حال المعركة الدائرة مع الرافضة أو الصليبية في غير زمانه!

فإن مسلك سكوت العلماء والدعاة والجماعات والمؤسسات عن مواجهة الغلو، والإنكار على أهله - له آثاره المدمرة على المجتمع كله، فهو مسلك يهدد المجتمع بكل فئاته، ويفتح المجال لتمدد الغلو في الجماعات وقواعدها الشبابية، ويمهد السبيل لإفساد وتشويه شعيرة كالجهاد، ويزهد فيها، ويُفضي إلى اختراق الدعوات مخبراتيًّا، وضرب الدعوات وأربابها بعضها ببعض، وإيجاد مسوغات تسلط الكفار على ديار أهل الإسلام بزعم حرب الإرهاب، وتسلط العلمانيين على الإسلام تشويهًا وتنفيرًا!

فإن قيل: إن السكوت أحيانًا موقف شرعي قد يراه العالم أصح من غيره! فعندئذ يقال: ومن الأهمية بمكان أن يحدّد العلماء متى يأمر، ومتى ينهون،

ومتى يسكتون؛ ليتحقق من وراء ذلك مصلحة الإسلام وأهله، وهل يستقل بذلك عالم أو هو موقف جماعي؟!

فإن كان السكوت موقفًا؛ فليُحدّد من الذين يُسكت عنهم، ومتى، وأين؟!

وليُعلم أن السكوت عمّا تسهل مقاومته اختياريًا اليوم، ستكون ضريبته فادحةً غدًا عند الاضطرار لمواجهته بعدما يتمكن ويتجذّر!

رابعاً: تنبيه الغلاة إلى خطورة توظيفهم وأعمالهم لصالح الأعداء:

لا يدرك كثير من شباب تلك الفئات كيف يجري اختراق تنظيماتهم على مستويات متعددة، وكيف يتم العبث بها، وتوجيه دفتها إلى حيث يريد أعداء الله والأمة؛ لتحقيق لهم مآرب لا يمكن أن يحققوها إلا من خلال هذه الأعمال التي يسمونها إرهابًا؛ لتشمل الصالح والطالح والمقبول والمردود من الجهاد؛ بل إن بعض الحكومات في المنطقة العربية -بأجهزتها الاستخباراتية- تتاجر بهذه القضية لتحقيق مآربها أمام شعوبها، وأمام المجتمع الدولي!

ولقد شهدت المنطقة في إثر ما جرى بالعراق والشام ما يمكن أن نعتبره أنموذجاً لصناعة واستغلال الغلو والعنف على نحو لا مثيل له.

المجموعة الثانية: المسالك والأسباب العملية التنفيذية:

أولاً: تجييش المجتمع لمواجهة الاختطاف نحو الغلو:

وهذا يعني: تفعيل المؤسسات المجتمعية بأسرها، واعتبار محاربة الغلو هدفاً مقصوداً لكل فئات المجتمع ومؤسساته، فلا تخرج عن هذا مؤسسات الدولة، ولا تبعد عن ذلك وسائل التعليم والإعلام والتأثير كافة!

وهو يقتضي خطة شاملة في مناهج المدارس والتعليم الجامعي، وبرامج المساجد ودروس العلم، وحلقات الإعلام، ومواده المسموعة والمرئية والمقروءة على حدٍّ سواء.

كما ينتظم جهود الثقافة المجتمعية ومؤسساتها المختلفة؛ إضافةً إلى تثقيف منسوبي القطاعات الرسمية -القانونية والأمنية- بالثقافة الشرعية، والحدود والآداب الإسلامية في التعامل مع الغلو والغلاة.

ويدخل في ذلك: القضاء على أسباب صناعة الغلو وترويجه؛ سواء منها المباشرة وغير المباشرة، وهذا يستلزم مواجهةً لمنكرات التسيّب والانحلال، وحمايةً لأعراض وكرامة المصابين بالغلو، فضلاً عن كفاية أسرهم وذويهم!

وحتى يتحقق معنى تجييش المجتمع؛ فإن برامج وفعاليات دينية وإعلامية وتربوية، ومناظرات حوارية، ومناقشات علنية وغير علنية- يجب أن تعرف طريقها داخل المجتمع بكل تكويناته ومؤسساته، متحليّةً بتنوع في المعالجة، وتعدّد في وسائل الوقاية والعلاج.

ثانياً: دعم العلماء والدعاة والمحتسبين على الغلو:

من غير شكّ، فإن الجهد الأكبر في ردّ الغلو والاحتساب عليه واقعٌ على أهل العلم والدعوة والفكر والثقافة معاً، وقيام المعنّيين منهم بهذا الواجب يحتاج إلى مهمات، منها:

- إيقاف العلماء على حقائق الغلو المعاصر، وما يترتب عليه من كوارث في المجتمعات.

- وأن النهي عن منكرات الأهواء والشهوات ليس بأولى من النهي عن منكرات الغلو في شأن الدماء، والأموال، والأعراض، والتكفير بالشبهات!
- كما يتضمن هذا الدعم تفريقاً وفصلاً بين حماية المجتمع، وحماية عروش، أو ممالك، أو حكوماتٍ فيها ظلم أو فساد.
- وأن تحقيق مصلحة الدين أولى من التوقف عن الإنكار خشية أن يقال: إنه عمل لحساب السلطان، أو نهى عن منكرات تمسُّ حكم السلطان فحسب!
- وأخيراً، فلا بد من دعم العلماء والحكماء في الحسبة على منكرات السياسة، وكفَّ عمل أهل الحكم بما يخالف الشرع المطهر، ومصالح البلاد والعباد.
- ومما تجدر إشارة إليه: أن من دعم أهل العلم في هذه المسائل: معالجة عددٍ من الأمور التي تعتبر عائقاً عن قيام العلماء بواجبهم، ومن ذلك:
- اعتقاد بعض العلماء والمفكرين أن التصدي للغلاة قد يخدم بعض الدول المحاربة للإسلام وأهله، أو أن الإنكار على بعض هؤلاء يوهن الإسلام والسُّنة من جهة تصدي بعضهم للرافضة.
- وقد يخالط ذلك أنواعٌ من المخاوفِ الحقيقية من بطش هؤلاء بالعلماء، أو تعريض أعمالٍ ومشاريعٍ مهمةٍ للتوقف أو التعويق، وقد يظن بعض الفضلاء أن مفاصد الاحتساب على هؤلاء أو أولئك تربو على مصالحه!
- ومثل هذا يحتاج -من جهةٍ- إلى نقاش وحوار جماعي، وتكاتف مجتمعي؛ لتأمين بعض المصالح، ودرء بعض المفاصد.

كما يحتاج -من جهةٍ أخرى- إلى شدِّ أزر أهل العلم والفكر بأهل الشوكة والقدرة.

على أن المحافظة على وجود فئةٍ من العلماء والدعاة بمنأى عن الاتهام بصفة: (الرسمية)، أو (الحكومية) - يفيد لدى طوائف من الغلاة الذين فقدوا الثقة بالجملة في العلماء الرسميين.

ثالثاً: السعي في الإصلاح والاحتساب السياسي:

قد يكون من المُسلَّم به أن الناس على دين ملوكهم، وأن الانحراف في باب الحكم تشعَّب عنه من الفساد في كل مجالٍ ما الله به عليم، وأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وأن صلاح السلطة السياسية أصل يتفرع عنه صلاح الرعية، وعليه: فإن الإصلاح السياسي بالاحتساب تارةً، وبالمشاركة تارةً، وبالمكاثرة في مواقع التأثير والإدارة تارةً، كل ذلك من شأنه أن يكون له أثر مباشر على انحسار المنكرات، وتقلُّص المخالفات، وتخفيف السخط والاحتقانات.

والإصلاح السياسي الذي يعني أمراً بالعدل، ونهياً عن الجور، وتشاوراً في الأمر، وتداولاً للمال بين الرعية بمقتضى السوية - كل ذلك من الاحتساب السياسي الذي يقلل من فرص تنامي الغلو.

ولا شك أن من أكبر أسباب الغلو: الاضطهاد السياسي لبعض فئات المجتمع الإسلامي، وتمتُّع المسلم في مجتمعه بحقوقه السياسية يُؤذَنُ بإنهاء كثيرٍ من الإشكالات التي أضرت بالمجتمعات.

رابعاً: إيجاد أذرع إعلامية مجتمعية ومستقلة عن الحكومات:

من أهم المسالك: إنشاء وسائل إعلامية -مقروءة ومسموعة ومرئية- مَعْنِيَّة بقضايا المجتمع وهمومه، بعيداً عن التبعية للسلطة السياسية، فهي بهذا تعيد الثقة في العلماء والمثقفين، وتدفع عنهم شبهة العمل لحساب السلاطين، وتمكّن من قول الحق في كل انحرافٍ أو منكرٍ سياسي أو غير سياسي، وتقوي مؤسسات المجتمع على حدٍّ سواء، وتمثل ضماناً لوجود صوت مستقل عن صوت السلطة.

كما أن من شأن هذه الأذرع أن تدافع عن العلماء المثقفين والمفكرين الأحرار ضد حملات التشكيك أو الافتراء عليهم؛ لأن الدفاع عنهم من قِبَلِ مؤسسات إعلامية تابعة للدولة قد يزيد الأمر شبهةً عند الشباب والفئات المغرور بهم في ساحة الغلو!

كما أن تملُّك وسائل وأدوات إعلامية حرة يُعين المصلحين على الجهر بالإنكار المنضبط على كل من يجب الإنكار عليه علانيةً، ويقوي جانب مؤسسات المجتمع المسؤولة عن صلاحه وطهارته.

خامساً: السعي في تقليل الانحراف والغلو ما أمكن إلى ذلك سبيل:

إن مما لا يحسن تجاهله: خطابُ الفئة الشرعية لدى الغلاة بالمناظرة والمحااجة في أصل قضايا الإيمان والكفر، وفي وجوب مراعاة السياقات الواقعية والسياسية للأمة اليوم، وبتحذيرهم من أن يتحولوا إلى مجرد علماء سوءٍ يقومون بشرعة انحرافات هذه الطائفة الغالية.

وكما أن انحراف طبقات الغلاة في الفئة الواحدة متفاوت، فمن باب أولى تفاوت انحراف الفئات المنسوبة للغلو والعنف، والجهاد يعجُّ اليوم بفئات كثيرة، منها ما هو أقرب إلى الغلو والبدعة، ومنها ما هو أقرب إلى الوسطية والسنة.

ولا يجوز -بحالٍ- أن تُحشَرَ جميعُ الطوائف الغالية أو المنحرفة في سياق واحد، وأن تُكَال لها التُّهم جزافاً، فمن العدل أن يُعرف أيها أقرب وأقلُّ غلوًا، وأكثرُ موافقةً للسنة من غيرها.

وعند العلاج إذا لم يمكن الانتقال عن البدعة إلى السنة؛ فإنه يمكن القبول مرحلياً بالانتقال من الأشد غلوًا إلى الأقل، ومن الأقل إلى ما هو دونه، حتى ينتقل المجاهد من الأقل اتباعاً للسنة إلى من هو أكثرُ اتباعاً، وأفضلُ لزوماً للسنة.

وهذا التدرُّج إذا لم يمكن غيره، فلا يجوز تفويته ولا إهماله، بل هو من الواجب الشرعي على المتصدي للإنكار على الغلو وأهله، فإنه إذا لم يقدر على إزالة المنكر بالكلية، كان عليه أن يسعى في تخفيفه وتقليله، والميسور لا يسقط بالمعسور.

وعليه؛ فإن من الإجراءات المهمة: بيانُ سُلم الغلو في بيئةٍ ما، ومعرفة المآخذ على كل فئة وطائفة؛ بحيث إنَّ من أراد الجهاد والاستشهاد فإنه يُرشد إلى الفئة المتبعة للسنة، فإن تعذَّر فإلى من هو أقرب، وهكذا يُطالب المتتمي إلى تنظيم الدولة بالشام أن ينتقل إلى القاعدة، ومنها إلى النصرة، ومن كان في النصرة ينتقل إلى الجبهة الإسلامية، ومنها إلى أحرار الشام وصقورها مثلاً.

ولا يصلح أن يكون الإنكار باتاً قاطعاً نهائياً إلى غير بديل شرعي!

والمحتسب تارة يأمر، وتارة ينهى، وتارة يسكت!

على أن من الغلاة مَنْ هو من الخوارج وهو في صلب أبيه! ومنهم من يكون مع الدّجال في آخر الزمان، لكن الأمر القدري الكوني لا يعارض الأمر الشرعي الإلهي الطلبي بتكثير سواد أهل السُّنة، وتقليل أهل الغلوّ والبدعة!



المَبْحَثُ العَاشِرُ أهداف ما يُسمَّى

بـ (التحالف العالمي للحرب على الإرهاب)

إن مما لا يمتري فيه مسلم أن دول الغرب الصليبية العلمانية، ومن ورائها الصهيونية العالمية- لا تريد بالإسلام وأهله خيرًا في قليل أو كثير، وأنها لم تنطلق في تحالفها للحرب على الإرهاب من منطلق ردّ عادية الغلو والانحراف، بل لها في حربها تلك منطلقات وأهداف متعددة، يتضح بيانها فيما يلي:

أولاً: تقويض جهاد السُّنة:

منذ أن انطلقت شرارة الجهاد الأفغاني والعمل الجهادي يتمدد في مواقع كثيرة، وقد أصبح الآن حقيقةً ماثلةً في منطقة الشرق الأوسط، لا سيما بعد الثورات العربية، ومما لا يتردّد في إثباته متابع: تنامي القلق الغربي من العمل الجهادي الذي أثمر دولة طالبان، وهو أمرٌ دعا الغرب لافتعال المبررات لإسقاطها، ودعاه - أيضًا- للكيد لهذا الجهاد في بقاع متعددة من الأرض؛ بدءًا من اختراقه، وانتهاءً بقتال واغتيال رجاله ومجموعاته، ومرورًا بصناعة واستثمار الغلو فيه وتأجيجه لإيجاد مسوغات إقليمية ودولية لتدشين ما سُمّي: بـ(التحالف الدولي ضد الإرهاب).

وحقيقة الأمر: أنها الحرب على الأذرع الجهادية السنية المحسوبة على الأمة الإسلامية؛ سواء في الشام، أو العراق، أو غيرهما، ومحاولة جذب كل متحمّس للجهاد إلى بقعة محدودة ليسهل القضاء عليهم تحت ذريعة (الحرب على الإرهاب)! قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

علاوةً على أن تكفير المجاهدين من قبل مجموعات غالية تستبيح قتالهم ودماءهم - هو لونٌ آخر من ألوان تقويض الجهاد على طريقة: (لا يقطع الشجرة إلا أحدُ أغصانها)، والواقع ماثل لا يحتاج إلى تعليق، أو تدليل، أو تمثيل! وهذه أكبر أهدافهم تتحقق على أيدي غيرهم!

وغنيّ عن البيان أن إجماعاً صليبيّاً صهيونيّاً رافضيّاً قد انعقد على منع السُّنة من حكم أنفسهم بأنفسهم في سوريا والعراق واليمن وغيرها، وأن جيوش روسيا وإيران دخلت في حرب مباشرة لإنقاذ النظام النصيري بسوريا؛ لئلا تترثه دولة سنية بالشام، وقد نجحت في ذلك إلى حدٍّ بعيدٍ كما لا يخفى على متابع، وقد تبدّلت مواقف دول وكيانات؛ بل انقلبت رأساً على عقب من النظام السوري.

ثانياً: إضعاف الكيانات الدعوية الإسلامية السنية، وتفكيك بناها التحتية:

عمل الغرب -من خلال عملائه في البلاد العربية والإسلامية- على مقاومة الدعوة إلى الله، ومحاربة امتدادات العمل الإسلامي المعاصر بكل أشكاله الدعوية والعلمية، وتشويهها والتنكيل بها، ومحاصرتها عبر عقود متتابة، إلا أن المفاجأة أنه بمجرد ارتفاع غطاء القهر والاستبداد، وضّع الناس ثقتهم في أهل الدعوة إلى الله

على تنوع مدارسهم ومناهجهم، وهو أمرٌ أقص مضاجعهم في الغرب كثيراً.

ورعاية بعض نوابت الغلو وتقويتها يمهد السبيل للصاق تهم الإرهاب بالعمل الإسلامي بكل تكويناته السنية، ووصم الجميع بتهم تروجها وسائل إعلامية مأجورة؛ تمهيداً لاعتقالات ظالمة، وأحكام قضائية جائرة، واضطهاد سياسي، وتشويه اجتماعي للعمل الإسلامي برؤيته.

كل ذلك باسم القضاء على الغلو أو الإرهاب الذي يصنعه ويسوقه الغرب وأولياؤه، ومن ثم يجري استغلال الناس وتزييف وعيهم؛ ليقبلوا بحرب إبادة وتكسير عظام بحق طوائف من الدعاة والمصلحين، وهذا -أيضاً- من الحرب التي يشنها أعداء السنة في العمق، ويطمحون من ورائها لتفكيك البنى التحتية للكيانات الإسلامية الدعوية الشمولية.

ثالثاً: تقليص المد الإسلامي في الغرب:

لقد انتشر الإسلام في العقود الخمسة الأخيرة في الغرب انتشاراً عظيماً، جعل الإسلام هو الديانة الأولى التي يفىء الناس إليها، وقد دقت أجراس خطر كثيرة في الغرب عبر اللوبي الصهيوني هناك، وتعددت محاولات التحرش بالمسلمين في بلاد الأقليات كثيراً في الآونة الأخيرة، لا سيما بعد أحداث برجي التجارة العالمية عام (٢٠٠١م)، وقد تعددت حوادث القتل والاعتداء على مسلمين ومسلمات في بلاد أوروبا وأمريكا.

ويروج الغرب من خلال بعض حكوماته وقنواته اليوم أن مسلمي الأقليات باتوا يشكلون تهديدات لمجتمعاتهم بتبنيهم أفكاراً إرهابية، وتنفيذهم لعمليات

قتل مروعة، ثم بهجرتهم إلى بلاد العرب للقتال في صفوف مجموعات إرهابية، ويعملون بأشكال متعددة على تشويه مسلمي الأقليات، ووصمهم بألوان من الاتهامات.

وإذا كان المسلمون في تلك الديار بعشرات الملايين؛ فإن خوف دهاقنة الساسة والفكر هناك هو أن تتحول أوروبا إلى قارة إسلامية بحلول عام (٢٠٥٠م)، وتحت هذا الشعار تُمارَس أساليب إقصائية، وتُدبج قوانين استثنائية في بلاد أوروبية كثيرة موجّهة -بالأصالة- ضد الإسلام وأهله ومظاهره، ويعاد تشكيل الرأي العام سلبياً تجاه الإسلام هناك.

رابعاً: تحويل الدول العربية الغنية إلى مَدِينَةٍ بدلاً من دَائِنَةٍ:

اكتشف الغرب أن دعم الدعوة والأعمال الخيرية والإغاثية في البلاد الإسلامية يتم عبر مؤسسات خيرية وإغاثية مانحة تقوم على تبرعات محسنين في دول الخليج، فقاموا بحملة عالمية على تلك المؤسسات، وصادرت أموال كثير منها، وأغلقت عددًا من فروعها حول العالم، ولَفَّقَت عدة قضايا لها باعتبارها متهمّة بدعم الإرهاب، ثم إنه جرى تبرئة القائمين عليها بعد سنوات من الاعتقال تحت المحاكمة!

وظنَّ الغرب أنه أحكم السيطرة، وجفَّف منابع العمل الخيري، وحاصر الدعوة، إلا أن النتيجة لم تكن كما توقَّع؛ فكثير من قنوات الخير بقيت يقوم عليها المحسنون بأنفسهم، فكان من الأهمية بمكان تحويل دول النفط الغنية في الخليج إلى دول فقيرة أو مَدِينَةٍ، وقد كانت الحرب التي زعموا فيها تحالفاً على

الإرهاب بتكلفة إجمالية (٦١ مليار دولار)، تحمّلتها دول المنطقة في حرب الخليج أوائل التسعينيات، وقد أثّرت تلك التكلفة على ميزانيات دول الخليج، إلا أن الطفرة التي حصلت في أسعار النفط عدّلت من الموازين الاقتصادية.

ومسرحية الحرب على الغلو المعاصر في هذه المرة تهدف -ربما- إلى ضخّ نحو تريليون دولار، مع إطالة أمد الحرب من ثلاث سنين إلى عشرة إلى ثلاثين سنة! هكذا صدرت التصريحات الرسمية عن قيادات تلك المسرحية الهزلية!

وهذا كما يحقق إفقارًا لميزانيات دول الخليج، فهو يحقق إنعاشًا لاقتصاد أكبر دولة تعاني من الديون، وهي أمريكا! وإنعاش تجارة بيع السلاح والاتجار به عالميًا، وهو وقود الحرب، وعن طريق تلك الحرب تسيطر على منابع النفط الذي عملوا على تخفيض سعره العالمي قبل سنوات بنحو (٦٠٪) بما يزيد من إشكالية دول الخليج الاقتصادية، كل هذا بزعم الحرب على الإرهاب! فهل يعي أولئك الغلاة كيف يُستغل وجودهم على نحو يزيد من الضعف العام لبلاد الإسلام؟!

خامسًا: تنفيذ (سايكس بيكو) جديدة:

بحلول العام الميلادي (٢٠١٦م) مرّت مائة عام على اتفاقية (سايكس بيكو) التي وُقِّعت سرّيًا بين عامي (١٩١٥-١٩١٦م)، والتي بموجبها تقاسمت القوى الاستعمارية -آنذاك- العالم الإسلامي، ويبدو أن هذه المنطقة التي جرى تقسيمها بحاجة -في نظر الغرب المستعمر- إلى مزيد تقسيم!

لكن إنجاز هذه المخططات -التي سُرِّبَتْ وثائق كثيرة عنها- يحتاج إلى إخراج دموي؛ كالحرب العالمية الأولى التي في إثرها وُقِّعت ثم فُعِّلَتْ (سايكس بيكو)!

وهو الأمر الذي لأجله تُفتعل الحرب بعد الحرب على المنطقة العربية الآن، ويُبرَّرُ إشعال المواجهات، وتفاقم الصدامات في الشرق الأوسط، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلا بدَّ من انتباهٍ إلى خطورة المخططات الرامية إلى التقسيم عبر الصدام وتأجيج الخصومات بين أهل الإسلام، وعلى أرضهم!

ولا يخفى أن هذا التحالف الدولي هو الثالث على العراق في ثلاثة عقود متتالية؛ من مطلع التسعينيات إلى اليوم، واليوم يقف السودان بقيادة يسارية أمام مخططات التقسيم أضعف ما يكون! واليمن تتجه أحداثها إلى هذا المنحى بوضوح أيضًا بين الشمال والجنوب!

وفي كل مرة ينفقون من أموالنا وأموالهم، ثم تفشل مخططاتهم -لا أنجح الله لهم مقصدًا- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

سادسًا: تسليم إيران منصب شرطي المنطقة:

أيقن الغرب أن المواجهة العسكرية على أرض الرافدين والشام وغيرها محفوفة بمخاطر الهزيمة، وتأكدوا من ذلك بعد حرب العراق التي خرجوا منها عام (٢٠٠٨م) يجرُّون أذيال الهزيمة والخيبة، ثم أعلنوا رسميًا عام (٢٠١٥م)

عن هزيمتهم في العراق، وجريمتهم غير المبررة في محاولة احتلالها بزعم تملُّكها السلاح الكيميائي!

واقتنعوا - في نهاية المطاف - أنهم لا يستطيعون أن يقاتلوا العرب بأنفسهم، وإنما بالواسطة، وليس بالمنطقة العربية من يحمل عداءً للإسلام والسُّنة كما يحمله المشروع الفارسي الصفوي الإيراني الذي يحلم باستعادة الإمبراطورية الفارسية من جديد!

كما أن أصحاب هذا المشروع الفارسي الرافضي يحملون عداءً تاريخياً وعقيدةً تكفيريةً لأهل الإسلام السُّنة، وقد كانت الشعارات الاستهلاكية بثورات الاحتجاجات الإيرانية ضد الإمبريالية الأمريكية والصهيونية متسيدةً الفترة السابقة، حتى قرَّرا معًا الكشف عن عمق العلاقة التحالفية والاستراتيجية بين الغرب بمشروعه (الصهيوصليبي) والمشروع الصفوي الفارسي، وبات واضحاً أن أمريكا تمهد الأرض للإيرانيين لتسلُّم أزمّة القيادة في المنطقة بعد إبرام اتفاقهم النووي مع إيران، وبموجبه ستتوغل إيران علانيةً في اليمن، ومن بعدها دول الخليج، وقد ظهرت بوادر الحرب الداخلية والفتن في كلٍّ من البحرين والكويت بتمويل وتخطيط وتدريب إيران.

وممَّا يُرصد: أنه في عهد (ترامب) ارتفعت وتيرة المواجهة مع النظام الإيراني، والانسحاب من الاتفاق النووي، وبالْحرب الاقتصادية لحساب الكيان الصهيوني، ثم ما لبثت أن هدأت تلك المواجهة في عهد (بايدن) الذي يُفضِّل العودة لسياسات (أوباما)، وما تزال المفاوضات جارية.

ويبدو أن هذه المفاوضات ستنتهي بتحصيل مكاسب إيرانية سياسية ومادية على كل حال!

ومن جهةٍ أخرى، فليس سرًّا أن إيران عملت على اختراق تنظيمات الجهاد كافة، واحتفظت بصلات ودعم مالي وعسكري لفئات جهادية كثيرة، ولم ولن يكون دعمًا للإسلام السني بحالٍ! وإن كان، فلن يكون بلا مقابل!

ومن هنا، فقد وجب على المتعاملين معهم أن يراجعوا ويتأملوا سعي الإيرانيين إلى تفجير الأوضاع داخل البلاد السنية، وينظروا في مصالحهم من وراء ذلك، ولعل فيما جرى في العراق وسوريا واليمن عبرةً لمعتبر!



الخاتمة

كان ما مضى من فصولٍ بمثابة جرس إنذارٍ وتحذيرٍ من استتجار الدعوة إلى الله في مواقع كثيرة نحو الغلو الذي يدمرها، ويدمر معها مجتمعات المسلمين، وقد يقال: إن هذا الإنذار جاء بعد فوات الأوان؛ فإن الذين استثمروا الغلو ووظفوه في بلاد المسلمين يهنئ بعضهم بعضًا بالفوز فيما يسمونه: (الحرب العالمية الثالثة)، التي أداروها في كثيرٍ من الربوع العربية والإسلامية!

وأيًا ما كان الأمر، فإن الانتباه إلى خطرٍ داهمٍ -ولو بعد حلوله- خيرٌ من استمرار الغفلة عن مواجهته والتصدي لآثاره، ثم إن هذه الحرب إن انتصروا فيها عسكريًا، فلم ينتصروا -ولن ينتصروا- فكريًا أو حضاريًا!

والمسلمون مطالبون بالعودة إلى دينهم ومصدر عزتهم، ومراجعة كتاب ربهم، والانطلاق من أصولهم التي يعتزُّون بها، ثم إن سُنَّة التدافع باقية ماضية، والخسائر وإن كثرت، فإن هناك مكاسب من الوعي وتراكم الخبرة، وأبوابًا من الخير قد فتحت، وعلى أهل الإسلام أن ينتفعوا بذلك كله.

وكما ينبغي الحذر من الغلو في جانب التكفير واستباحة الدماء، يُحذر أيضًا من التفريط والتسيب في جانب إنكار المنكرات، والوقوع في الإرجاء، أو الانتقال

إلى نوعٍ آخر من أنواع الاختطاف؛ كالتأثر بالليبرالية أو العلمانية، أو الوقوع في تحوُّل الدعوات الإسلامية إلى السلبية التي تفرضها طرق خرافية، أو فلسفات عقلية، وهذا ما نرجو أن تواصل هذه السلسلة البيان حوله؛ نصحًا للدعوات الإسلامية، وحثًا من عواقب غير مرضية!

فاللهم إنّنا نسألك الهداية والسداد، والتوفيق إلى الرشاد، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



مُحتويات الكتاب

المقدمة	٥
المبحث الأول: تاريخ الحرب على الدعوة الإسلامية وفكرتها الأصيلة	٩
حقيقة الحرب الفكرية المعاصرة.....	١٦
بين مصطلح (حرب الأفكار)، ومصطلحات أخرى.....	١٩
المبحث الثاني: اختطاف الدعوة الإسلامية.. الأسباب والبواعث.....	٢٠
أولاً: المدُّ الدعوي المعاصر	٢١
ثانياً: الإخفاق العسكري الغربي.....	٢٢
ثالثاً: تنامي الرُّقعة الإسلامية في الغرب، وتحسُّن صورة الإسلام نسبياً	
هنالك.....	٢٥
رابعاً: العداء الديني للإسلام وأهله.....	٢٨
خامساً: وجود بوادر تطرف وغلو وعنف تدعو لاستثمارها.....	٣٠
سادساً: هزيمة التيار السُّني المقاوم للاحتلال	٣٢
المبحث الثالث: اختطاف الإسلام.. أهداف وغايات واستراتيجيات	٣٦
وههنا مثال فكري مفهومي مصطلحي	٤٢

المبحث الرابع: الاستراتيجيات البديلة بعد فشل خيار القوة العسكرية ٥٢

- مرتكزات الاستراتيجية البديلة ٥٢
- أولاً: حرب عقيدة التوحيد بالإلحاد ٥٢
- ثانياً: حرب عقيدة أهل السنة وأصولهم بعقائد أهل البدع وأصولهم ٥٣
- ثالثاً: حرب طوائف وجماعات الدعوة الإسلامية بالطريقة الغالية ٥٤
- رابعاً: حرب دعاة السلفية ببعض غلاة المنتسبين إليها ٥٦

المبحث الخامس: القوى الفاعلة في اختطاف الدعوة الإسلامية نحو الغلو

والعنف ٥٨

- أولاً: فرق وجماعات الغلو العقدي ٥٨
- ثانياً: الغلو في جانب ممارسة الجهاد ٦٠
- ثالثاً: الأنظمة المستبدة ٦٤
- رابعاً: النظام الإيراني ٦٥
- خامساً: النظم الغربية (الصليبية، والصهيونية) ٦٧

المبحث السادس: أسباب ودوافع قبول الاختطاف نحو الغلو والعنف ٧٢

- أولاً: أسباب ذاتية ٧٢
- ١ - ضعف الانتماء إلى المجتمع ٧٢
- ٢ - السمات الشخصية التي تدعو إلى العنف ٧٣
- ثانياً: الأسباب العلمية والفكرية ٧٤
- ثالثاً: الأسباب السياسية والاجتماعية ٧٩

١ - تسيد العلمانية، وتنحية الشريعة الإسلامية	٧٩
٢ - تتابع النكسات، وتوالي الهزائم، وتفاقم الانكسارات	٨١
٣ - اختلال واعتلال العلاقة بين الحاكم والمحكوم	٨٢
٤ - الانحلال الأخلاقي، والفساد الإعلامي	٨٣
رابعاً: الأسباب المحلية والإقليمية	٨٤
المبحث السابع: وسائل وأدوات اختطاف الإسلام نحو الغلو	٨٥
أولاً: الوسائل والأدوات المباشرة	٨٦
١ - انتشار إرهاب الدولة، والإرهاب الدولي	٨٦
٢ - صناعة حركات وجماعات الغلو واستثمارها	٩٩
٣ - دورات التأهيل للغلو والعنف	١٠٤
٤ - السجون والمعتقلات مصانع للغلو والعنف	١٠٦
٥ - الإعلام الموجّه والجديد	١٠٨
٦ - تغييب العلماء ودعاة الوسطية والاعتدال	١١٢
ثانياً: الوسائل والأدوات غير المباشرة	١١٣
١ - تفشي داء الافتراق والتدابير في العمل الإسلامي	١١٣
٢ - ضغط الاستضعاف الذي تعيشه الأمة	١١٥
٣ - ردّة الفعل على الصحوات	١١٧
٤ - الحرب على الدين ومظاهره	١١٩
المبحث الثامن: رؤى وأسباب لمواجهة محاولة الاختطاف	١٢٢
أولاً: تحرير المرجعية في الحكم على الغلو والتطرف	١٢٢

ثانيًا: التقصير في فهم قول المعاصرين من كلامهم أو كتبهم أنفسهم ١٢٣

ثالثًا: تحرير الفوارق بين ما في الكتب من مقولات الفرق، وما في الواقع من

تطور ١٢٤

رابعًا: الغفلة عن نوازل تتضمن انحرافات مؤثرة في واقع الأمة ١٢٧

خامسًا: حصر الغلو في جانب دون آخر (المواجهة الجزئية) ١٢٨

سادسًا: ارتباط الحسبة على الغلو بسلطة ظالمة ومؤسسات دولة دون

مؤسسات المجتمع ١٢٩

سابعًا: الوقيعة المصنوعة بين الأنظمة العربية والعمل الإسلامي ١٣٠

المبحث التاسع: مسالك وطرائق لمواجهة اختطاف الدعوة الإسلامية

نحو الغلو والعنف ١٣٢

المجموعة الأولى: المسالك والأسباب العلمية النظرية ١٣٢

أولًا: تحرير مدونة الوسطية والاعتدال فيما وقع فيه الغلو ١٣٢

ثانيًا: فكُّ الاشتباك ورفع الالتباس بين المشروع والممنوع من الجهاد

وقضاياه، ومسائل السياسة الشرعية ١٣٤

ثالثًا: مراجعة مَنْ وما قد يدعم فكره ومواقفه الغلو بطريق أو بأخرى ١٣٥

رابعًا: تنبيه الغلاة إلى خطورة توظيفهم وأعمالهم لصالح الأعداء ١٣٧

المجموعة الثانية: المسالك والأسباب العملية التنفيذية ١٣٧

أولًا: تجييش المجتمع لمواجهة الاختطاف نحو الغلو ١٣٧

ثانيًا: دعم العلماء والدعاة والمحتسبين على الغلو ١٣٨

- ثالثًا: السعي في الإصلاح والاحتساب السياسي ١٤٠
- رابعًا: إيجاد أذرع إعلامية مجتمعية ومستقلة عن الحكومات ١٤١
- خامسًا: السعي في تقليل الانحراف والغلو ما أمكن إلى ذلك سبيل ١٤١

المبحث العاشر: أهداف ما يُسمَّى بـ (التحالف العالمي للحرب على

- الإرهاب) ١٤٤
- أولًا: تقويض جهاد السُّنة ١٤٤
- ثانيًا: إضعاف الكيانات الدعوية الإسلامية السنية، وتفكيك بناها التحتية ١٤٥
- ثالثًا: تقليص المدِّ الإسلامي في الغرب ١٤٦
- رابعًا: تحويل الدول العربية الغنية إلى مَدِينَةٍ بدلاً من دَائِنَةٍ ١٤٧
- خامسًا: تنفيذ (سايكس بيكو) جديدة ١٤٨
- سادسًا: تسليم إيران منصب شرطي المنطقة ١٤٩
- الخاتمة ١٥٣
- محتويات الكتاب ١٥٥